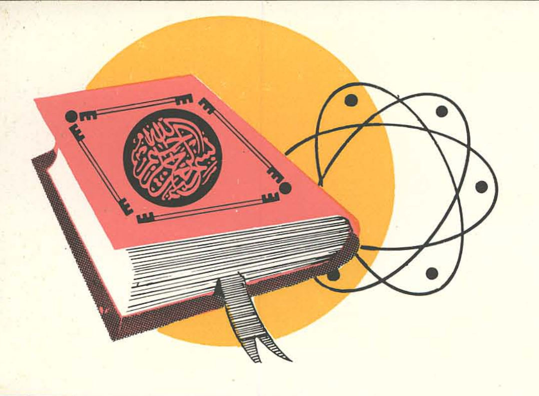
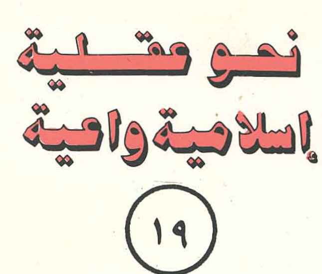




التبعية الثقافية

وسائلها ومظاهرها

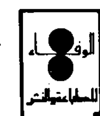
الدكتور عبد العظيم محمود الديب




التبعية الثقافية
وسائلها ومظاهرها

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصـــورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكليـة الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٣٤٧٤٢٣ ص ب : ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

تطلب جميع منشـــوراتنا من :



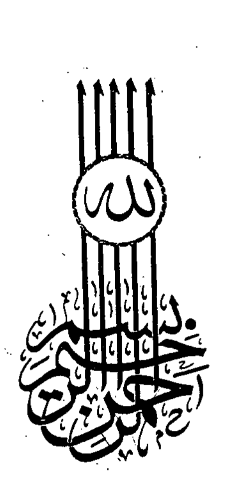
دار النشر للجامعات المصرية ـ مكتبة الوفاء

١٦ ش عدلي ت : ٣٩٣١٤٣٤ / ٣٩١٢٢٠٩

نحو عقلية
إسلامية واعية
١٩



الدكتور عبد العظيم محمود الديب


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله وحده ، ولا شىء معه دائمًا وأبدا

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ [النساء: ١] ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وعليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ، اللهم إنا نبرأ من حولنا وقوتنا ونلوذ بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك ، ونصلى ونسلم على صفوتك من خلقك ، وخاتم رسلك سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد :

فما أظن منصفا ينظر إلى واقعنا الثقافى والفكرى ، إلا ويدرك ما آل إليه أمرنا ، وحال إليه حالنا ، من تبعية ثقافية وفكرية ، تزداد يوما بعد يوم ، حتى وصلت إلى عبودية فكرية ، جعلت عقولنا تستنيم لكل ما يلقى إليها ، حتى صارت لدينا مسلّمات خادعة وبدهيات كاذبة ، ترتاح إليها العقول ، وتؤمن بها ، ثم بالتالى تبدأ فى الانطلاق منها ، وتبنى

على أساسها ، ويتنامى البناء ويعلو ، ويزداد ويتسع ، ولكنه على شفا جُرفٍ هارٍ ، ينهار بنا فى جحيم التخلف ، والضياع ، والتمزق ، والشعور بالضعة والهوان ، وكل ذلك كائن .

ففى مجال الفكر حينما تكذب المقدمات لا تنتج إلا خطأ ، والخطأ يستقر ، ثم يُعتمد أساساً ومقدمات لعمليات فكرية أخرى ، فيتكرس الخطأ ، ويزداد ، ويتسع وينتشر ، ومع التكرار ، واللجاجة والإلحاح ، يصبحُ الوهم حقيقة ، يتشبث بها الناس ، ويدافعون عنها . وجيلا بعد جيل ، ورعيلا بعد رعيل ، تصبح هذه الأوهام حقائق مقدّسة ، لا يسمح بمناقشتها ، ولا بمساسها ، مثل (التنوير) ،(المنورون) (الشوامخ). . . إلخ .

وكان من ثمرة هذا التضليل الثقافى أن ثقافة عصرنا ـــ فى جملتها ـــ تدور على محورين ، لا ثالث لهما : التهجم على تاريخنا السياسى ، بل والفكرى ، والسخرية منه ، وازدراء علمائنا وأئمتنا ، واتهامهم ظلما وزورا بالقصور والتقصير ، حيث يرى البعض أنهم انشغلوا بفقه الفروع، « ولم يستطع بصرهم الكليل أن يرى استبداد الحكام ، واستطالتهم فى أموال الأمة ، وعدوانهم على الحريات ، وامتهانهم لكبار الشخصيات. . . » .

وأما المحور الثانى ، فهو الحديث عن أمجاد الغرب ، وتقدم الغرب، وعظمة الغرب ، والفجوة الحضارية التى بيننا وبين الغرب ، ويفزّعوننا وينذروننا بأن مسافة التخلف تزداد عمقاً واتساعاً .

هكذا ، عينٌ على ماضينا نحاكمه ، ونجلده ، ونصفعه ، ونبرأ منه، وعينٌ على الغرب نعظمه ، ونجلّه ، ونمجدّه ، حتى نشعر نحوه بالهوان ، والضعف ، والاستسلام .

هذا هو واقعنا !! أصبح ما يمكن أن نسميه (جزء الأمة الثقافى) يسير فكره على هذين (القضيبين) ، ويتعلق قلبه بين (هذين المتوازيين).

ولكن نحمد الله أن عامة الأمة ، ما زالت بخير وعافية ؛ لأنها أدارت ظهرها لهذه الثقافة المغشوشة ، فظلّت هذه الثقافة الرسمية كما صورها الأستاذ الكبير الدكتور زكى نجيب محمود « بقعة زيت على سطح محيط هادئ »، فهؤلاء المثقفون(المنورون) ، وأجهزة الثقافة ووسائلها كلها فى واد والأمة فى واد آخر ، لم يغب أبداً وعيها ، ولن يغيب ، «فما يجوز على الأفراد لا يجوز على الأمم الأصيلة ، ذات الماضى العريق» [1] .

وستكون الصفحات الآتية مجال البحث فى هذه الظاهرة (التبعية الثقافية) : وسائلها ، ومظاهرها ، وأخطارها .

ونسأل الله سبحانه التوفيق والسداد .

وكتب أبو محمود

عبد العظيم محمود الديب

الدوحة : فجر العاشر من رمضان المعظم .

سنة ١٤١٣ من هجرة المصطفى ﷺ

الموافق للثالث من شهر إله الحرب

مارس سنة ١٩٩٣ بالتقويم الجريجورى

---

(١) نظرت فى هذا المعنى إلى ما كتبته الدكتورة بنت الشاطئ ـ مد الله فى عمرها ونفع بها ـ فى بعض مقالاتها بالأهرام ، ويؤسفنى أن النص ليس تحت يدى لأؤديه كما كتبته .

مدخل :

يقتضينا المنهج العلمى ، أو العرف (الأكاديمى) أن نحدد (المشكلة) موضوع البحث ، ونبين الأسلوب المتبع فى علاجها ، والأدوات المستخدمة فى البحث ، كما نحدد المفاهيم والمصطلحات موضوع الدراسة، ولعله ليس من قبيل الاستطراد المعيب أن أؤكد أن هذا ليس من بدع هذا العصر ، وليس من مجلوب الحضارة الغازية ومستورداتها ، فالذين لهم إلفٌ بنظام دراستنا الأصيل ، وأسلوب أئمتنا وعلمائنا ، يعرفون أنه كان على الطالب ــ مهما كان شاديا مبتدئا ــ أن يعرف (المبادئ العشرة) لأى علم من العلوم « قبل أن يحاول الخوض فيه » ، وأذكر أننا فى أول (درس) من دروس النحو ، فى الصف الأول الابتدائى بالمعهد الدينى ، راح أستاذنا يشرح لنا (المبادئ العشرة) ، ويؤكد لنا أنه لا يمكن لمتعلم « أن يخوض فى أى علم » قبل أن يعرف هذه (المبادئ العشرة) للعلم الذى يدرسه ، وهذا المبادئ هي : « اسمه ــ حده ــ موضوعه ــ واضعه (أى نشأته) ــ نسبته إلى غيره من العلوم (أى علاقته بالعلوم الأخرى) ــ استمداده ــ ثمرته ــ حكمه (أى الحكم الشرعى فى الاشتغال به ، مثل « مباح ، أو مندوب ،أو فرض كفاية » . . .) ــ فضلُه (أى شرفه ومنزلته) ــ مسائله » .

ومن هنا سنحدد خطة هذا البحث [1] فيما يأتى :

أ ــ بيان مفهوم الثقافة ، ومعنى التبعية .

---

(١) آثرنا التعبير بـ (خطة هذا البحث) عمداً تفادياً لاستخدام لفظ (الورقة) لما فيه من تبعية فى المصطلح .

ب ـ الإجابة عن الأسئلة الآتية :

ـ أحقا هنـاك تبعية ثقافيـة ؟ وجعلنا عنوان هذا الـفصل : (وكلاء توزيع الفكر الغربى) .

ـ لماذا كانـت هـذه التبعيـة ؟ وجعـلـنـا عنوانه : (فظيـع جـهـل ما يجرى).

ـ ما العوامل والوسائل التى أدت إلى هذه التبعية ؟ وعنوانه :

غزاة لا أشاهدهم وسيف الغزو فى صدرى .

ـ ما مظاهرها وآثارها ؟ وعنوانه :

صور العمى شتَّى ، وأقبحها إذا نظرت بغير عيونهن الهامُ .

ـ كيف النـجاة من هذه التبعيـة ؟ وعنوانه : نحن نجتاز مـوقفًا تعثر الآراء فيه وعثرة الرأى تُردى .

* * *

ثم نـنبه إلى أنـنا فى مـعالجتـنا لهذه الـقضايـا سنخـضع للضـوابط والملاحظات الآتية :

١ ـ إن بعض هذه الجزئيات قد تتداخل وتـتوازى ، فعلى سبيل المثال، ما يكون وسيلة باعتبار قد يكون مظهرا وأثرا باعتبارٍ آخر ، بل قد يتطور الأمر ، فيصبح ثمرة خالصة وآفة من آفات التبعيّة .

فالتعـليم ، على سبيل المـثال ، كان وسيلة وأداة من أدوات التـبعية وتكريـسها ، ولكن حـينما نُصرّ نـحن الآن على تغـريب تعليـمنا ، ونصوغه على المثال الذى كـان يريد المحتل أن يصـنعه بنا ، فيـصبح

هذا التعليم ثمرة من ثمرات التبعية ، ومظهرا من مظاهرها .

٢ ــ سأحاول ما استطعت أن ألتزم بالأسلوب العلمى الهادئ جدا ، بقدر طاقتى ، فإذا جاءت عبارة عالية ، أو جملةٌ حادة ، فعذرى أننى لست كاتباً مأجورا ، ولا مقاتلاً مرتزقاً ، وإنما أنا صاحب القضية ، وقد حفظنا من المأثور عن سلفنا العظام : « ما صوت النائحة الثكلى، كصوت النائحة المستأجرة » .

وقد عبر عن هذا الموقف القاضى الفاضل [1] المستشار طارق البشرى بقوله :

« ومحاولة نزع عنصر الانتماء من الباحث ، فى تناوله لتاريخ قومه، هو جزء من عملية (تحييده) ، أى عزله عن قضايا وطنه وشعبه ، أى أن خلع الانتماء من الباحث يفيد خلع الباحث نفسه ، وتلك لعبة لعبها معنا الاستعمار كثيرا ، من خلال مؤسساته العلمية ، يسعى إلى تحييدنا فى نشاطنا العلمى وغيره ، عن أوطاننا وجماعتنا ، وعن مشاكلنا ، وعندما يتم ذلك نكون قد اغتربنا عن ديارنا وأنفسنا ، ويسهل علينا التعبير عن ذاتنا الجماعية بالضمير (هم) بدلا من

---

(١) آثرت هذا اللقب بدلا من (المفكر) أولا: لأن التلقيب بالمفكر أثر من آثار التبعية والترجمة ، وثانيا : لأنه أصبح كلأ مباحا يتقارضه بعض الكتّاب مع بعض ، وثالثا ـ وهو الأهم ــ : أن له سلفا فى هذا اللقب عرف به ، وهو القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، وهو الذى كتب خطاب البشارة بفتح بيت المقدس ــ على لسان صلاح الدين ــ حينما طهره من الصليبيين وأنا واحد من الذين ــ لم يدجّنوا ــ وما زالوا يؤمنون بأن فتح بيت المقدس قادم لا محالة ،فعسى أن يكون أخى المستشار طارق هو كاتب بشارة الفتح فى هذا الزمان .

(نحن) ، كما نقول اليوم (أزمــة الشرق الأوسط) ، وليس أزمتنا نحن المصريين والعرب ، مسلمين ومسيحيين . وهذه أحسم الخطوات التى يصير بعــدها المثقف ، إما مفكرا مرتزقاً ، أى مــحارباً بلا قضية ولا رسالة، وإما من خصيان المفكــرين ، أى مفكر بلا موقف . وما أكثر النمطين انتشاراً بيننا » [1] .

ولكن هذا لــن يمنعنــا أبداً من الالــتزام بالمــوضوعية ، والــدقة المنهجــية ، ثم إن لنا فى هــذا ــ سلفا مــن عــظمـاء أمتــى ، إمامنا حجة الإســلام، أبو حامد الغــزالى ، فقد كــان فى ضرباته المــوجهة للتبعية الثقــافية فــى عصــره،حين كتــب كتـابيــه (تهافت الفلاسفة) و(فضائح الباطنــية) ــ منهجيا جدا، علميا جــدا ، ولكنه لم يكن باردا هامدا كمن يكتب في فكر مطلق، ينزع نفسه خارج المعركة التى يكتب فيهــا، بل كان مدركا تمام الإدراك ، لم يغب وعيــه لحظة بأنه صاحب القضية ، فلا يعترضنَّ أحدُ علينا قائلا : هذه نبرة خطابية ، أو لغة أدبية ليست علمية .

ثم من المعلوم أن الأسلوب العلمــى المتأدب (وهو المستخدم فى الدراسات الإنسانية بــعامة) يسع ــ عند من يعرفه ـــ أسلوب إمامنا الغزالى، ومن ينسج على منواله .

٣ ــ سأحــاول ــ ما اســتطعــت ــ أن أعتــمد فى الــتوثيــق والاستشــهاد نصوص، ومواقف مدرسة التبعية ، ورجالها أنفسهم .

---

(١) المستــشار طارق البــشرى : الحركة الــسياسية فــى مصــر : ص ١١ ـــ الــقــاهرة ــ دار الشروق ــ طبعة ثانية ١٤٠٣ هــ ــ ١٩٨٣ م .

٤ ــ إننا أبداً لا نتعرض للنيات وخفايا الصدور ، وما وراء السطور، لا لأن ذلك مخالف للمنهج العلمى ، بل لأنه ــ قبل ذلك ــ مخالف لتعاليم ديننا وقواعد فقهنا « هلا شققت عن قلبه »،« الأحكام تناط بالظاهر » .

٥ ــ لا أدعى أن ما أقدمه هو الحق الذى لا مرية فيه ، والصواب الذى لاشك فيه ، ولست أقول ذلك من باب التواضع الكاذب ، الذى يسجله بعض الكاتبين عادة فى مقدمة أعمالهم ومفتتح كتبهم ، ولكنى أقول ذلك التزاماً بالمنهج الذى تعلمته من أشياخى ، إرثاً عن أئمتنا العظام: « قولى صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيرى خطأ يحتمل الصواب» ، وليس من قبيل الاستطراد المعيب أيضاً أن أقول: إنه مهما ترجم المترجمون عن المنهج العلمى ، واحترام الرأى الآخر، لن يجدوا أوجز ، ولا أوضح ، ولا أنصع ، ولا أجمل من عبارة أئمتنا السالفة هذه .

٦ ــ سأحاول ــ وليتنى أستطيع ـ أن أكتب بعربية فصيحة ، مفردات، وتراكيب ، وأساليب ، متجنبا أمثال هذه الكلمات : الآلية ــ الإشكالية ــ الإيجابية ــ السلبية ــ الزخم ــ المماهاة ــ التماهى ــ قَوْنَنَة ــ نُمَؤْسِس ــ قناعتى ، فقد مسخت التبعية الثقافية وجه لغتنا الجميلة ، وصرنا نقرأ أبحاثا ــ على جودتها ــ تلوح عجمة لغوية بغيضة فوق أفكارها وحول معانيها ، فتفقدها رواءها ، وبهاءها .

٧ ــ إننا حينما نتكلم عن الثقافة والتبعية الثقافية ، سنتكلم بالقطع عن واقع معيش ، فلا وجود لثقافة فى فراغ ، ولا لفكر فى خواء . فما يجرى لنا فى البوسنة وغير البوسنة مرتبط بما قيل ويقال وسيقال هنا

ــ في هذه النـدوة وأمثالها ــ : إن الأمم لا تهزم فى سـاحة المعركة الحربية ، وإنما تكون هُزمت قبل ذلك ، وتأتى الهزيمة العسكرية مثل رصاصة الرحمة ، إيذانا بأنها (الآن) عبء على الحياة .

٨ ــ إن واقعنا الآن ، وما يحيط بنا مـن نُذر ، ينطق بأن الخطر بات يهدد جذورنا ، ويـهدد كينونـتنا ، فإما أن نـكون أو لا نكون . فلـم يعد مجال للشقشقة اللفظية ، والمحاورات السفسطية .

٩ ــ إذا تعرضنـا لشخص بالاسم ، فنـحن نتعرض لقولـه أو فعله ، ولا نتعرّض لشخصه .

١٠ ــ نحن لسنا مـع أو ضد الغرب ، ولكنا نبحث عـن ذاتنا ، فإذا جاء حديث عن الـصراع بينـنا وبين الـغرب ، فأرجـو أن يفهم فـى هذه الحدود .

معنى الثقافة :

تدل مادة: « ث . ق . ف » فـى أصل وضعها الـلغوى علـى معان عدة منها :

الأخذ : جـاء فـى المصبـاح المنيـر : « ثـقفـتُ الشيء ـــ من باب تعب ــ : أخذته » .

الحذق والفطنة : جاء فى القاموس : « ثقف ككرم وفرح ثقفا وثقفا وثقافـة : صار حاذقا فـطنا » . وفى الـصحاح مثـل هذا . وفى المعـجم الوسيط : « ثقف العلم والصناعة : حققهما » .

الإدراك : جاء فـى المعجم الـوسيط : « ثـقف فلانا فـى الحرب : أدركه ، والشىء : ظفر به ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ **فخذوهم واقتلوهم**

حيث ثقفتموهم ﴾ [النساء : ٩١] » .

الإصلاح والتسوية والتقويم : جاء في الصحاح : « الثقاف : ما تسوى به الرماح ، وتسويتها : تثقيفها » . وفي المعجم الوسيط : «ثقف الشيء : أقام المعوجَّ منه » .

وأما المجاز ، فمنذ أزمان متطاولة استعملت الثقافة بمعنى التأديب والتهذيب ، جاء في أساس البلاغة للزمخشري : « ومن المجاز : أدبه وثقفه ، ولولا تثقيفك وتوقيفك لما كنتُ شيئا . وهل تهذَّبتُ وتثقفت إلا على يدك » .

الثقافة في الاصطلاح : وأما معناها اصطلاحا ، فبينه وبين المعنى اللغوي كبير ارتباط ، بل هو يكاد يشمل كل معانيها اللغوية ، الأصلي والمجازي منها .

فقد عرفها مجمع اللغة العربية في معجمه الوسيط بأنها : « العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذقُ فيها » ، وعرفها في المعجم الفلسفي بأنها : « كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق ، وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو في المجتمع ، وتشتمل على المعارف والمعتقدات ، والفن والأخلاق وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه ، ولها طرق ونماذج عملية وفكرية وروحية ، ولكل جيل ثقافته التي استمدها من الماضي ، وأضاف إليها ما أضاف في الحاضر ، وهي عنوان المجتمعات البشرية .

ويفرق بينها وبين الحضارة ، على أساس أن الثقافة ذات طابع فردي ، وتنصبُّ بخاصة على الجوانب الروحية ، في حين أن الحضارة ذات طابع

اجتماعى ومادى . غير أن الاستعمال المعاصر يكاد يُسوى بين المصطلحين» [١].

وقد عرفها الدكتور س . م . يوسف ــ رئيس دائرة اللغة العربية فى جامعة كراتشى قائلا : « الثقافة فى الأساس ملكة عقلية ، إنها مُجمل نظرة الإنسان إلى العالم ومكانه الخاص فيه ، وإلى آرائه فى غاية الحياة ، ومفاهيمه للسعادة والشقاء ، واحتماله فى الشدة والرخاء ، وموقفه من مشاكل الحياة اليومية ، وفى هذا المعنى نفسه يقول إقبال : « إن الصفة المميزة للمسلم هى البسمة على الشفتين عند الموت » ، هذه المواقف والاتجاهات وطرق السلوك تنبع من إدراك قيم أساسية معينة » [٢].

وهناك تعريفات [٣] كثيرة تختلف وتتفق ، أو تتقارب وتتباعد ، لكنها كلها تُجمع على أن (الدين) جزء الثقافة الأهم ، أو بالأحرى الذى تنبع منه كل مقومات الثقافة ، ويصبغها بصبغته .

يؤكد هذا كلام الشاعر الناقد توماس ستيرن إليوت ــ (توفى ١٩٦٥م) الحاصل على جائزة نوبل ، وصاحب قصيدة (الأرض الخراب)

---

(١) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفى : ص ٥٨ ــ القاهرة ــ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، سنة ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .

(٢) مجموعة من مفكرى الهند وباكستان : الثقافة الإسلامية من بعض زواياها :ص ٣٧ .

(٣) لشيخنا الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر ــ مد الله فى عمره ــ كلام بديع ، عن مفهوم الثقافة ، ومدلولها لم نشأ أن نستشهد به هنا ، التزاما بمنهجنا فى هذا البحث ، من عدم الاحتجاج على مدرسة (التبعية الثقافية) بأحد من خارجها ما أمكن ــ اقرأ كلام شيخنا ــ إن شئت أن تفيد علما جديدا ، وتستمتع ببيانه العالى ــ فى كتابه : (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) : ص ١٠٣ ــ ١٠٩ .

التى شغف بها أدباؤنا ، ونقادنا ، وشغلتهم عن تراث أمتهم ، وكنوز آبائهم وأجدادهم ـ قال إليوت : « إن القوة الرئيسة فى خلق ثقافة مشتركة بين شعوب لكل منها ثقافتها المتميزة هى الدين ، وأرجو ألا تخطئوا عند هذه النقطة بتصور معنى لم أقصده ، فهذا ليس حديثا دينيا ، ولست أرمى إلى تحويل أحد عن دينه ، وإنما أنا أقرر حقيقة ، ولست شديد الاهتمام بوحدة المسيحيين اليوم ، وإنما أتحدث عن سنن المسيحية المشترك ، الذى جعل أوربا على ما هى عليه . . . فى المسيحية نمت فنوننا، وفى المسيحية تأصلت ـ إلى عهد قريب ـ قوانين أوربا ، وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحى . وقد لا يؤمن فرد أوربى بأن العقيدة المسيحية صحيحة ، ولكن كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه فى الثقافة المسيحية ، ويعتمد فى معناه على تلك الثقافة . ما كان يمكن أن تخرج فولتير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية ، وما أظن أن ثقافة أوربا تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحى اختفاءً تاما . ولا يرجع اقتناعى بذلك إلى كونى مسيحيا فحسب ، بل إنى مقتنع به أيضا بوصفى دارسا لعلم الأحياء الاجتماعى .

إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا »[1].

خصوصية الثقافة :

وعلى هذا فالثقافة لها خصوصيتها ، يقول الدكتور زكى نجيب

---

(١) كتاب ملاحظات نحو تعريف الثقافة : ترجمة الدكتور شكرى عياد ، أخذا عن الدكتور عدنان زرزور ، فى كتابه القيم فى الفكر والثقافة الإسلامية : المدخل والأساس العقائدى: ص ٣١ ، ٣٢ ـ المكتب الإسلامى ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م

محمود : « الشعوب هـى ثقافتها ، الشعوب مختلفـة ، فالحقيقة إذا هى ثقـافات لا ثـقافـة واحدة . . أنـت الآن عربـى ولك ثـقافـتك الـعربـية الإسلامية، وهذه لابد أن تُصان من ألفها إلى يائها . . . يجب أن تقول : أنا صاحـب ثقافة ، وسـأحافظ عليـها ، ويجب أن أحافـظ على ثقـافتى العربية والإسلامية ، من الألف إلى الياء ، وهى ليست كتلة ميتة ، ليست موضوعـة فى صندوق . . . فى ثقـافتنا مرونة الأداء الـتى تصلح للـعالم أجمع ، لـكل ظرف من ظـروف الزمن ، لكـل زمان ومكان . . ونـحن ميزاننا الثقافى واحد ، وميزاننا الدينى واحد ، وتتعدد الأجسام التى يوزن بها ، وعلى المثقف العربى أن يعرف طريقه إلى كيفية استخدام هذا الميزان فى مسائل العـصر ومشكلاته، فأول ما نؤكده : (تعـدد الثقافات) ، لم ولن نعود نقيس المثقف باقترابه مما يقول (الخواجات) » (١) .

وواضح من كلام الأستاذ الكبيـر أنه عاد إلى هذا الرأى أخيراً ، ولم يكـن عليـه من قبـل ، ذلك أنه ــ مـؤخراً ــ أعـلن أنه اتـصل بالـتراث الإسلامى فى لغته العربية ، وبدأ الاطـلاع عليه ، بعد أن كان يقتصر فى قراءته ، ودراسته على الفكر الغربى ، وهذه الصراحة والشجاعة تُحمد له وتشكـر ، وتشهد بصدقـه مع نفسه ، بخـلاف غيره من الأساتذة الـكبار الذين كانوا يـخطئون فى العلن ، ويـعتذرون فى السر ، كما قـال شيخنا الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر (٢) .

---

(١) د . زكى نجيـب محمود : دورنا فى ثـقافة العصر ـــ محاضرة بنادى الجسرة ، نُشرت ضمن (قضـايا ثقافية رقـم ٢ ص ٢٤) نادى الجسرة الثقـافى والاجتماعى ـــ الدوحة ـ ١٩٨٨ م .

(٢) انظر كتابه : المتنبى ـ السفر الأول : ص ٤٢ ـ دار المدنى ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٧ م

ويمثل قـول : الدكتور زكـــى نجيـب محـمود قال أستاذنا الـدكتور أحمد هيكل ــ عمـيد دار العلوم السابق [١] ــ وما كـان لى أن أستشـهد وأدلل على خصوصية الثقـافة ، بعدما رأينا من أن « ت . س . إليوت » يجعل ثقافة الـشعب ودين الشعب مظهرين مختلـفين لشىء واحد ، وأنها تجسيد لهذا الدين ، وأنه من الممكن أن تجتذب قوما إلى إيمان دينى بعينه ، بوساطة الثقافة الـتى تجسد هذا الدين [٢] . فبيّنٌ مـن هذا تمام البـيان أن الثقافة لا يمكن أن تكون واحدة ، ولكنى رأيت أن كثيرين ممن يُكثرون من اللجاجة والإلحـاح على (عالمية الثقـافة) و (الثقافة الإنسانـية) (وأنها ثقافـة واحدة) رأيت هؤلاء أقـرب إلى الاهتداء والانقـياد للدكـتور زكى نجيب محمود ، فهو واحد من أعمدة (الـتنوير) الذين يأخذ عنهم هؤلاء ما يلوكونه من آراء ، وما يمضغونه من أفكار .

التبعية :

« هى حـال الشخص أو الجـماعة التـى يخضع نـشاطُها لمبـدأ خارج عنها، وتقابل استقلال الذات » [٣] .

فعنوان البـحث (التبعية الثقافـية) مركب وصفى ، يعنى بـالتحديد خضوع النشاط الثقافى ــ للشخص أو الجماعة ــ لمبدأ خارج عنها .

---

(١) انظر : نحو حـضارة عربية معاصرة ــ مـحاضرة بنادى الجسرة ، نشرت ضـمن (قضايا ثقافـية رقم ٢ ص ١٥٢) ــ نادى الجسـرة الثقافى والاجـتمـاعــى ــ الـدوحة ــ قـطر ــ ١٩٨٨ م .

(٢) محمود مـحمد شاكر ــ شيـخنا الجليل ـــ : أباطيل وأسمار : ص ٤٩٧ ــ الـقاهرة ــ مطبعة المدنى ١٩٧٢ م .

(٣) مجمع اللـغة العربية : المعجم الـفلسفى : حرف التاء مع الـباء ــ القاهرة ــ الهيـئة العامة للمطابع الأميرية ــ ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .

ولما كانت الثقافة فى طورها الثانى ـ بعد طور النشأة الأولى ـ « نظر ومباحثة ، وممارسة للتفكير ، والتنقيب والفحص ، ومعالجة التعبير عن الرأى ، الذى هو نتاج مزاولة العقل لعمله ، حتى تتكون النواة الجديدة لما يمكن أن يسمى ثقافة ، وبين أن السبيل إلى تحقيق ذلك هو (اللغة) و(المعارف) الأول التى كانت فى طورها الأول مصبوغة بصبغة الدين لا محالة »[1]ـ كان بينا تمام البيان ، وواضحا كل الوضوح ، صعوبة العبث بثقافة أمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات ، وإخضاعها ، واستتباعها ، فإن ذلك إن أمكن ـ على عسره ـ فى الجانب المعرفى ، والجانب اللغوى ، فإنه عسير أشد العسر فى الجانب الدينى ، وفى الطور الأول ، وما يقوم عليه من عواطف ، ومشاعر ، وانفعالات .

وهذا ما يفسر لنا أن الجهود الموجهة ضد أمتنا ـ منذ نحو قرنين من الزمان ـ على ضراوتها ، وعنفها ، وخبثها ، وسوء مكرها وتدبيرها ، وتدسسها ، واستخفائها ، واتخاذها لكل حالة لبوسها ، وتقنعها بألف قناع وقناع ـ أقول : برغم كل ذلك لم يظهر التأثير إلا بعد عدة أجيال ، تدفع كل جيل خطوة ، ثم الجيل الذى يليه خطوة أخرى ، وهذا واضح تماما بالنظر إلى درجة هذه التبعية ، أو إلى الفرق بين التبعية التى بدأها المندهش الأعظم رفاعة الطهطاوى وجيله ، والتبعية التى نراها الآن . ثم هى بعد ، لم تظفر إلا بقشرة هشة ، وجماعة ضعيفة ، ولم يتبعها إلا الأقلون الأذلون ، وبقى بنيان الأمة فى جملته سليما متينا لم يتزعزع .

---

(١) أستاذنا محمود محمد شاكر : رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا : ص ١٠٧ ـ دار الهلال ـ سلسلة كتاب الهلال ـ العدد رقم ٤٨٩ ـ القاهرة ـ سبتمبر ١٩٩١ م .

لكن الخطر فى أن هذه القلة هى التى ملكها الاستعمار مكانه قبل أن يرحل ، فورثـها السلطة ، والقيـادة فى كل مكان وفى كل مـجال ، فقد مكـنهم مـن منابـع الفكـر والتوجيـه ، فالصـحافة بـأيديهـم ، والإذاعة بأيديهـم، والسينما بأيـديهم ، والمسرح بأيديـهم ، والتلفزيون بـأيديهم ، وبرامج التعليـم بأيديهم ، ووسائل النشر والطبع بـأيديهم ، ودور الكتب بأيديهم .

وعسى أن يكون فى الصفحات التـالية بيان لما كان كيف كان ، ولماذا كان .

ـ ١ ـ

« وكلاء توزيع الفكر الغربى »

أبادر قبل أن يلـوى أحد رأسه محتجا ، فأؤكد أن هذا الـعنوان ليس من عندى ، فما أنا بالذى يجبه المخـالفين إلى هذا الحد ، ولكنه من كلام « الروائى المصـرى الكبير يوسف القـعيد » ، فقد حاورته جـريدة الشرق القطرية ونشرت [١] تحت عنـوان ضخم : (ليس عـندنا مفكـرون ولكن وكلاء لتوزيـع الفكر الغربى) ، حـاورته بصفته « واحـدا من أهم رموز جيل المرارات ، ومـن أبرز كتّاب الرواية الـعربية الآن ، وقد ترك بـصمة واضحة فى مسيرة الرواية العربية بما قدمه من أعمال روائية متميزة ، تعتبر إضافة حقـيقية لهذا الإبداع الروائـى والذى تخطى حيز المكـان العربى ، ونقل مترجـما إلى العديد من اللغـات ، كالإنجليزية والفرنسـية والروسية والألمانية والإيطالية وغيرها » ا.هـ بنصه .

فالرجـل إذا ليس (رجعيا) ولا (مـتحجرا) ولا (متـطرفا) . . . ولا . . . ولا . . . فماذا قال ؟

سأله المحرر : « وهل الفكر العربى يمكن أن يبلور نفسه فى ظل هذا الزحام الشديـد من الأفكار ، ويشق طريقـه ، ويستطيع أن يكون مـقتربا بالواقعة أكثر ؟ » .

فأجاب : « أنا مـختلف معك فى مقـولة الفكر العربـى . فى القول بفكرة الفكر الـعربى . لا يوجد فكر عربى ، ولكن يوجـد فكر غربى له

---

(١) نشر فى يوم ٢١ / ٥ / ١٩٩٢ م .

وكلاء ، طالبو فلسفة فى الخارج : يعنى نقول :

* عثمان أمين ، ماذا فعل ؟ « الجوانية » .

* عبد الرحمن بدوى ، ماذا فعل ؟ « الوجودية » .

* فؤاد زكريا ، ماذا فعل ؟ « الماركسية » .

* الإخوة فى شمال إفريقية ، تقريبا يستخدمون جملا هى ترجمة حرفية للمفردات الفرنسية ، أنا عندما أقرأ رواياتهم ، أجدهم يقولون : الشكلانية ، أنا لا أعرف ماذا تعنى الشكلانية ، وسألت علماء اللغة ، فقالوا : لا توجد كلمة بهذا المعنى فى اللغة العربية . أجدهم يقولون : « فضاء روائى » لا أعرف ماذا تعنى ، وهل هى الحيز الزمانى أو الحيز المكانى ؟ اللذان يكتب عنهما الروائى عندما يكتب الرواية ؟ هل هى البعد الزمنى للرواية وهل . . . وهل . . . أسئلة كثيرة لكى أصل إلى شىء ، ولا أصل إلى « الفضاء الروائى » ، وهذه جملة لها هيمنة شديدة وقوية على وجدان الناس . كل شمال إفريقية أنا أعتبره خارجا من الفلسفة الفرنسية الحديثة » ا.هـ بنصه .

ثم استأنف مواصلاً الحديث ينعى علينا التنكر لتراثنا فقال : « وهذا يعنى أن الحضارة العربية حضارة عقيم فى الإنتاج الفلسفى ، بالعكس ، هناك القديم ، ولكن صلتنا به مقطوعة ، ولا نتمثله ، ونصف أنفسنا بالسلفية والأصولية ، حيث نتجه إليه رغم أن فيه فكرا مستنيرا . . . . عندنا ابن خلدون ومع ذلك نأتى بعلم الاجتماع مرة من « كانت » ومرة من « كارل ماركس » ومن غيرهما ، وهم الذين أخذوا فى الأساس هذا العلم من عالم عربى هو ابن خلدون .

بضاعتنا تذهب لأوربا ويحدث فيها تعديلات ، ثم تعود إلينا مرة أخرى ، وتكون فى شكل شىء مصدر ، فننبهر بها ، وننظر إليها على أنها شىء جميل ، وكأنها مخلوقة الآن .

أنا لا أعتقد أن هناك فلسفة عربية ، وأزمة المجتمع المصرى الأساسية، آتية من أنه مجتمع ليس له فلسفة عامة ، وأنا لا أريد فلسفة عامة شمولية ، بمعنى أن تكون خطا والناس تسير فيه ، ومن لا يدخل يكون من الخوارج ويعاقب على هذا .

ولكن أنا أقصد فلسفة عامة ، بمعنى تصور عام للحياة ، قائم على نمط فلسفى ، ورؤية فلسفية ، هذا غير موجود للأسف الشديد » أ .هـ بنصه .

وعذرا إن أطلتُ فى هذا الاستشهاد ، ذلك أنى آثرت أن أنقل الكلام كاملا بنصه وحروفه لقسوة العنوان الذى أخذتُه من كلامه ، وحتى لا يظن أحد أننا نجتزئ من الكلام بما يشهد لنا .

ويكفى القعيد أن يشهد بهذا ، ونحن نتفق معه تماما ، أما لماذا حدث هذا وكيف العلاج ؟ فلا حرج عليه ولا علينا إن تباعدت رؤيتنا ، بُعْدَ ما بين المشارق والمغارب .

وهذا الذى قاله الروائى يوسف القعيد بألفاظ مكشوفة عريانة ، هو بعينه الذى قاله الأستاذ الكبير الدكتور زكى نجيب محمود ، ولكن بهدوء ابن الثمانين ، ولفّه فى لفائف ناعمة من حكمة السنين .

وهذه هى شهادته بنصها : « أشهد شهادة صدق ـ بنيتها على خبرة مباشرة ـ أن روادنا من أعلام الجيل الماضى ، برغم ما كانوا يعرضونه مبثوثا فى ثنايا ما يكتبونه من قيم الحرية والعدالة والمساواة . . . إلخ قد

كانوا ـ على الأغلب الأعم ـ أحرص الناس على أن تبقى مسافات بعيدة بينهم وبين من يتعاملون معهم من سواد الناس ، ومعنى ذلك أنه إذا لم تكن رسالة الكاتب قد أحدثت أثرها فى شخصه هو ، فهل يُتوقَّع لها أن تحدث أثرها فى الآخرين ؟

إذاً فقد كانت هناك فجوة عميقة بين الصحائف كما كتبها كاتبوها ، ونشروها فى الناس ، وبين وقع الحياة الجارية !! . . . إن روادنا شغلهم ما كانوا ينقلونه تلخيصا من الكتب ، عما كانت تجرى به حياةُ الناس من فواجع . . . ولقد تجمع لدى من العلامات والملاحظات ما جعلنى أوشك أن أنتهى إلى نتيجة أوقن بها ، وهى : أن جبابرة الكلمة إنما كانوا يكتبون بعقولهم ، وأما قلوبهم وما تؤمن به ، فكانت متخلفة هناك . تنبض بما كان سائدا مما زعموا أنهم إنما كتبوا ليغيروه .

كم ضيع روادنا على أنفسهم ، وعلى جمهور الناس جميعا فرصا ذهبيةً سنحت ، فتركوها تتبدد مع الهباء بسبب ما قد وقعوا فيه من ازدواجيات فى المعايير . . . » أ . هـ بنصه .

ثم يعلل لعدم قدرتهم على التأثير بثقافتهم الرفيعة ، أو عدم تأثير الثقافة الرفيعة فيهم ، يعلل ذلك « بأنهم بذلوا الشطر الأكبر من جهدهم في عرض ما كتبه فلان من الأسلاف ، أو ما كتبه فلان من جهابذة الغرب» أ . هـ بنصه (١) .

هذه شهادة أستاذ كبير ، ولأهميتها أدعوك لأن تقرأها ثانية ، وتتأملها جيداً ، لنرى أن الأستاذ الكبير أراد أن يقول شيئا خطيرا جدا ، ومن

---

(١) من مقاله بجريدة الأهرام فى ٣١ / ١٠ / ١٩٨٩ م .

أجل هذا ، جمجم ولم يفصح ، وأعجم ولم يُعرب ، وحاور وداور ، وهذا من حسن التأتى للأمور ــ فى هذا الزمان النكد ــ إنه يقول :

«إن ثقافة هؤلاء الرواد الشوامخ ــ جبابرة الكلمة ــ مزيفة» نعم !! ألم يقل : « إنها لم تؤثر فى أصحابها ، ولم تظهر فى سلوكهم ؟» وهل للتزييف معنًى غير ذلك ؟

ثم بين سر الداء ، فقال : « إنها كانت فى جملتها تلخيصا لما كتبه فلان من الأسلاف ، أو ما قاله علاّن من جهابذة الغرب » .

فهى إذًا ثقافة قشرية ، زائفة ، مسلوخة من عمل وفكر الآخرين ، ولهذا عجزت عن أن تؤثر فى أصحابها ، وبالتالى عجز أصحابها أن يؤثروا فى أمتهم .

« المفكر يعرض بضاعة الغير » :

هذا العنوان أيضاً ليس من عندى ، وإنما هو من كلام أستاذ كبير ، من أعلام التقدميين ، ذلكم هو الدكتور حسن حنفى ، فى كتابه « مقدمة فى علم الاستغراب » .

يقول :« إن علم الاستغراب نشأ فى مواجهة (التغريب) الذى امتد أثره « ليس فقط إلى الحياة الثقافية وتصوراتنا للعالم ، وهدد استقلالنا الحضارى ، بل وامتد أيضا إلى أساليب الحياة اليومية ، ونقاء اللغة ، ومظاهر الحياة العامة وفن العمارة . . . حتى أصبح العلم نقلا ، والعالم مترجما ، والمفكر عارضا لبضاعة الغير» [1] .

---

(١) جريدة الشرق ــ ٣ يونية ١٩٩٢ م .

ونكتفى بهذا القدر من شهادة الدكتور حسن حنفى ، ففيه الكفاية .

ثم نحن معه فى أننا لسنا ضد ولا مع الغرب ، ولكن « نريد أن نجعل الغرب موضوعا للدراسة ، موضوعا للعلم بدلا من أن يظل دائما مصدرا للعلم ، لقد تحررنا من الاستعمار ، ولكن مازلنا نعتمد عليه فى الغذاء والكساء وفى السلاح ، وفى الثقافة والعلم ، حان الآن الوقت بعد أن مضى قرنان من الزمان (٢٠٠ سنة) حان الآن أن ننتقل نقلة كيفية ، أى نجعل الغرب موضوعا للدراسة ، بدلا من الاكتفاء بالنقل والترجمة عنه » أ . هـ ملخصا .

وأكتفى بهذه الشهادات الثلاث عن واقع التبعية الثقافية ، وبشاعة هذا الواقع ، الذى انخدع به من انخدع ــ ومن لا يزال مخدوعا ــ ظانا أن عندنا مفكرين ، وأننا نسير وراء روادنا فى طريق النهضة ، ولعل الواقع البشع الذى صارت إليه أمتنا هو الذى أيقظ هؤلاء الأساتذة ، وغيرهم ممن لم ندون شهادتهم ، فعسى أن نكون مما تُغنى عنهم النذر ، وأن نكون قد أبصرنا ذرائع الفناء التى كشرت لنا عن أنيابها .

❊ ❊ ❊

شهداء صدق ولكن :

إذا كانت هذه الشهادات قد اتفقت على أنه ليس عندنا مفكرون ، بل وكلاء لتوزيع الفكر الغربى ، ومجرد نقلة وملّخصون ، فهم صادقون حقا ، وما شهدوا إلا بما علموا ، ولكنهم فى ذاتهم هم أنفسهم أثر من آثار التبعية ، ومظهر من مظاهرها ، فعندهم (حَوَلٌ) ثقافى و(عَورٌ) فكرى ، فهم لا ينظرون إلا بعين واحدة ، وفى اتجاه واحد ، ينظرون فى اتجاه الغرب فقط ، ينتظرون أن يطلع عليهم مثقفون ومفكرون من هناك ،

وهيهات هيهات ، ولو نظروا بالعين الثانية ، وفى الاتجاه المستقيم ؛لرأوا أن أمتنا لم تعقم ، ولن تعقم ، فكانت منجية ، وستظل منجية ، لقد أنجبت أمتنا مثقفين أصلاء ، ومفكرين حقا ، ولن نُذكّر بالماضى البعيد ، ولا بالماضى القريب ، ولكن بعصرنا الحاضر ، (عصر التنوير) ، أنجبت أمتنا مفكرين بحق ، ينطبق عليهم بصدق لقب (مفكر) بمفهومه الكامل ، كانوا علماء أصحاب رأى ، ورؤية ، لهم مؤلفاتهم وأعمالهم العلمية التى سجلت نظرياتهم ، ولهم عملهم فى مجال تعليم الأمة ، وتربيتها ، وإعدادها للجهاد ، بل منهم من قادوا الجهاد بأنفسهم ، وكانوا مثلا وقدوة، بل منهم دفع حياته فداءً لرأيه ، فقضى شهيدا فى الميدان ، أو فى غير الميدان .

نذكر منهم على قدر ما تسعف الذاكرة الآن :

ـ الأمير عبد القادر الجزائرى (ت ١٣٠٠ هـ ـ ١٨٨٣ م) .

ـ الإمام عبد الحميد بن باديس (ت ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠ م) .

ـ الأمير عبد الكريم الخطابى (ت ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م) .

ـ الشهيد علال الفاسى (ت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م) .

ـ الشهيد عمر المختار (ت ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م) .

ـ الشهيد الشيخ عز الدين القسام (ت ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م) .

ـ الإمام محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦ هـ ـ ١٧٩٢ م) .

ـ الإمام محمد أحمد المهدى (ت ١٣٠٢ هـ ـ ١٨٨٥ م) .

ـ الإمام السنوسى محمد بن على بن السنوسى ـ مؤسس السنوسية الأول

(ت ١٢٧٦ هـ ــ ١٨٥٩ م) .

ــ الإمام محمد بن محمد بن على السنوسى ــ الزعيم الثانى للسنوسية (ت ١٣٢٠ هـ ــ ١٩٠٢ م) .

ــ الإمام أحمد الشريف بن محمد بن محمد على السنوسى ــ قائد السنوسية الثالث (١٣٥١ هـ ــ ١٩٣٣ م) .

ــ الإمام الشهيد حسن البنا (توفى شهيد الغدر ١٣٦٨ هـ ــ ١٩٤٩م) .

ــ الشهيد سيد قطب (المتوفى شهيداً فى ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٧ م) .

بل كان هناك مفكرون مصلحون قادوا حركات الإصلاح فى أكثر من ناحية فى العالم الإسلامى كله وليس فى العالم العربى وحده .

فكان فى إفريقيا صوت الشيخ عثمان دان فوديو الفولانى .

وكان فى الهند الإمام أحمد بن عرفان الهندى .

وفى إيران آية الله كاشانى ، ونواب صفوى .

وغير هؤلاء كثيرون ، ولكل منهم تلاميذ ومريدون ، هؤلاء هم المصلحون المفكرون المثقفون حقا ، فهم حملة هموم الأمة ، ودعاتها للنهوض ، والصحوة ، ومن أجل هذا كان على مدرسة التبعية التى مكنها الاستعمار من مقاليد الأمة أن تهيل عليهم التراب ، وحق لهم ، فيوم تسير الأمة على نهجهم ، وتهتدى بهداهم ؛ ستعبر فجوة التخلف ، وتخلع طوق العبودية ، وتكسر سلاسل العبودية .

وما أظننى إلا بخست هذه المدرسة ــــ مدرسة الأصالة ــ حقها بهذه الإشارة الموجزة إلى أعلامها ، وعسى أن تتــاح فرصة لدراسة متأنية وافية عن أعلام هذه المدرسة ، وأجيالها ، ودورها وجهادها ، والله المستعان .

* * *

ـ ٢ ـ

« فظيعٌ جهل ما يجرى »

« ومن النتائج الفرعية الهامة ، التى تخلفت عن الحملات الصليبية، إنشاء الإرساليات النصرانية للتبشيــر بين المسلمين ، فقد اقتنع رجال الفكر بفشل هذه الحــروب (الصليبية) وإخفاق الــوسائل العسكرية فــى معاملة المسلمين ، فــأخذوا يدعون إلى تركيز الاهــتمام على الوسائل الــسلمية . وكان الــكاهن الــقطلانــى ريمندلال (ت ٧١٥ هــ ١٣١٥ م) أول أوربى شدد على أهمية الدراســات الشرقية كأداة فعالة لنضال سلمــى يعتمد على الإقناع بدلا من الإكراه . . . وبــتأثير ريمند هذا جرى الروح الصــليبى فى مجرى جديد ، هو إقناع المسلمين باعتناق النصرانية بدلا من إبادتهم .

أما الأخوية الكرمــلية التى لا تزال عاملة فى سوريــة ، فقد أسسها فى هذا الــبلد أحد الصلــيبيين سنــة ٥٥٢ هـ ١١٥٧ م (انتبه منــذ متى) وسماها باسم أحد جبالها ، جبل الكرمل . وفى أوائل القرن الثالث عشر نشأ اثنتان من الأخويات الرهبانية همــا : الفرنسيسكان ، والدومينيكان ، وأنشأت كلٌ منهما لنفسها فروعا فــى كثير من المدن السورية (كلمة سورية هنا تشمل لبنان أيضا وما حولها) . وفى السنوات الأخيرة من ذلك القرن كان للفرنسيسكان كنيسة كبيرة فى بيروت .

وفى سنــة ٦١٦ هـ ١٢١٩ م زار مؤسس الأخوية الــفرنسيسكــانية ، القديس فرنســيس الأسيسى ، بلاط الأيوبيين فى مصــر ، وأجرى مناقشة دينية عقيمة مع الملك الكامل .

وكتب أسقف دومينيكانى ــ هو وليم الطرابلسى ــ رسالة من أوفى رسائل العصور الوسطى بشؤون المسلمين ، موضحا المواطن التى يتفق فيها الإسلام مع النصرانية ، وموصيا باستخدام المرسلين (يقصد المنصرين) بدلا من الجنود لاستعادة البلاد المقدسة ، وكان نظير زميله وليم الصورى مولودا فى هذه البلاد ، لكن من أبوين أوربيين » انتهى بنصه [1].

هذا ما كتبه فيليب حتى فى الجزء الثانى من كتابه تاريخ سورية الجزء الثانى ص ٢٦٣ . تعقيبا على آثار الحروب الصليبية ونتائجها .

وبرغم وجود نصوص كثيرة ، ووثائق لا حصر لها ، تؤكد هذا الدور الكيدى التآمرى ، فى هذا الاستعمار الثقافى ، إلا أننى حفى بهذه الوثيقة لعدة أسباب ، منها :

١ ــ أنها على لسان رجل أكاديمى مشهود له بطول الباع فى التاريخ ، هنا وفى الغرب .

٢ ــ أنه لا مجال لاتهامه بالتعصب ومحال أن يفترى عليهم .

٣ ــ أنها تشهد على أن هذا الغزو حقيقة واقعة بدأت فعلا ، بل بدأت مبكرا جدا .

ومن هنا لا يستطيع أحد أن يقول : إنكم متعصبون ، تتصيدون كلمات لمتعصبين مثلكم من الجانب الآخر ، تنفخون فيها ، وتضخمونها وتعطونها أكبر من حجمها ، فهم يتكلمون ، وأنتم تتكلمون .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين : ٢/٢٦٣ ــ دار الثقافة ــ بيروت ــ ط ٢ ــ ١٩٧٢ م .

للأسف هناك من يقول ذلك للآن !!

ليس تفسيرا تآمريا : حينما نلفت النظر إلى مثل هذه الوثائق ، ونحاول أن نفسر ما جرى وما يجرى فى ضوئها ، نجد بعض بنى قومنا من حسنى النية يشيحون بوجوههم عنا ، ويقولون : هكذا أنتم . عندكم هاجس التآمر ، وتفسرون كل ما يجرى على أنه مؤامرة ضدكم ، كأن الآخرين لا عمل لهم ، ولا شغل إلا التآمر عليكم ، ثم يستمرون : أنتم بهذا تجدون المشجب الذى تعلقون عليه مآسيكم ، وتجدون الوسيلة التى تبررون بها أمام أنفسكم ضعفكم وتخلفكم .

هكذا يقولون !!

وفى إيجاز شديد نقول لهم أولاً : إننا أبدا لا نبرئ أنفسنا بذلك ، بل بالعكس نحن نبحث عن جذور ما كان وكيف كان ؛ لنعرف كيف نجتثها ،فسم الأفعى لا نجاة منه إلا بترياق من لعابها .

ثم إن بنى قومى دائمو الحديث عن مهارة القوم فى التخطيط ، والدراسات الاستراتيجية ، وأخيرا الدراسات المستقبلية ، وهم لأجل ذلك معجبون بهم مبهورون بقدراتهم .

فلماذا إذا جئنا نحن ننظر فى أعمالهم ، نربط بين أوائلها وأواخرها ، وبين جزئياتها وكلياتها ، بحثا عن السلك الذى ينظمها ؛ لنعرف كيف ننجو مما يراد بنا ، ويدبر لنا ـ لماذا إذا حاولنا أن ندرس ونفهم يقال لنا : إنكم تُفسرون ما يجرى تفسيرا تآمريا ؟!

والعجيب أن الكوارث تحيق بنا واحدة تلو الأخرى ، ولا نعرف إلا بعد فوات الأوان ، كيف قادونا إليها ، ووقعنا فيها بأرجلنا ؟ على سبيل

المثال : الثورة العربية ، وإسقاط الخلافة الإسلامية ، ثم المعاهدات السرية لتقسيم بلادنا . . ثم مؤتمرات التبشير والتنصير . وآخرها ـ فيما نعلم ـ مؤتمر (حكماء كلورادو) الذى انعقد تحت شعار (تنصير العالم الإسلامى كله سنة ٢٠٠٠ م) .

وتذكروا إيلى كوهين ، فالمصنع الذى أنتجه لم يغلق أبوابه .

عود إلى الوثيقة :

وبالنظر إلى هذه الوثيقة نجد أنها وضعت خطة ذات شعبتين :

الأولى : إقناع المسلمين بالوسائل السلمية باعتناق النصرانية بدلا من الإكراه.

الثانية : (الدراسات الشرقية ، كأساس لنضال سلمى) يعنى دراسة أحوال المسلمين ، بل الشرق كله ، دراسة وافية ليدور النضال السلمى على أساسها .

وواضح أن هناك تعاونا بين الشعبتين ، حيث يستفيد التبشير من أعمال المستشرقين ودراستهم لخصائص كل منطقة وأحوالها ، وعاداتها ، وإمكاناتها . . . إلخ . والذى نلفت النظر إليه أن الدراسات الشرقية (الاستشراق) قامت بعملين مختلفين تماما إلى حد التناقض ، ولكنهما متكاملان تماما إلى حد يصبحان معه شيئا واحدا .

الأول : هو دراسة الشرق (دراستنا) دراسة كافية شافية ، من جميع النواحى ، وما عكوفهم الدائب على المخطوطات ، وفك رموزها، وفتح مغاليقها ، إلا للدخول إلى أعماق العقل المسلم، لمعرفة كيف يفكر، وكيف يدبر ، ولاقتحام القلب

المسلم لمعرفة كيف يحب وكيف يكره ، حتى جاز أن نقول : إنهم يعرفوننا تاريخا وحاضرا وعلوما وفنونا ، وعقيدة وشريعة ، وأرضا وزرعا، واقتصادا وتجارة . . أكثر مما نعرف أنفسنا .

الثانى : أنهم رسموا صورة شائهة كاذبة خاطئة ، للإسلام وللمسلمين ، صورة مستبشعة غاية البشاعة .

أما الصورة الثانية : فهى التى أشاعوها بين شعوبهم ، وربوا عليها أبناءهم ، صغارهم وشبابهم ، ينشئونهم على ذلك ؛ تحصينا لهم ضد الإسلام ، حتى لا يدخل الإسلام فى قلوبهم ، ويتكرر ما كان فى الأندلس .

ثم من ناحية أخرى تغفر الشعوب لحكامها ما ترتكبه من جرائم فى حق هؤلاء المسلمين المتوحشين ، ويغفر دافع الضرائب لحكامه ما تنفقه فى سبيل القضاء على هذا الدين المستبشع الذى يذل المرأة ، ويقطع أيدى الناس ، ويرجمهم بالحجارة حتى الموت ، ويبيح البنات الأبكار للسلطان. . . إلخ .

ولا يخدعنك ما حدث فى هذه الصورة من بعض التعديل ، فلم يكن ذلك رجوعا إلى حق عرفوه ، وإنما تغطية لكذب انكشف عواره ، حتى لا تفقد الجماهير ثقتها فيما يقدم لها عن الإسلام .

أما الصورة الأولى الصادقة الشافية الكافية : فهى أمام صانع القرار، ليصنعه على علم ، ولعلهم هم الذين اخترعوا هذه الحكمة (المعرفة قوة). وقد أخبرنى الأخ الكريم الدكتور عثمان سيد أحمد أن شعار مدرسة الدراسات الشرقية فى لندن عبارة عن دائرة فى وسطها جمل وحولها ما ترجمته (المعرفة قوة) .

ولقد استبحرت هذه الدراسات ، واتسعت إلى حد يكاد يعجز العقل عن تصديقه ، ولا يسع المجال هنا لذكر الإحصائيات المتاحة عن مراكز الرصد هذه ، ولكن فقط يكفى أن نشير إلى أن عدد المتفرغين لدراسات الشرق الأوسط فى أمريكا وحدها قفز من ٣٦٣ باحثا سنة ١٩٦٩ م إلى ٦٧٠ باحثا سنة ١٩٨٦ م ، وأن هناك نحو ٢٦٢ دورية جادة غير حكومية، باللغة الإنجليزية وحدها .

ناهيك عن عشرات المراكز التى أنشئت داخل البلاد الإسلامية نفسها، تحت مسميات مختلفة ، من مراكز ثقافية ، إلى مراكز تعليم لغات، إلى مراكز تعاون وتبادل خبرات ، إلى معونات فنية للدراسات السكانية أو . . أو . . .

كل هذا يأتى تنفيذا لما أوصى به الكاهن ريمندلال القطلانى ، من خلال احتلال العقول ، بدلا من احتلال الأرض .

ثم تطور ذلك بعد احتلال رأس جسر فى عقول أبناء الأمة ، إلى الشعار الذى رفعه (زويمر) : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بلسان رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها » [١] .

وهذا هو ما يجرى الآن .

---

(١) أ . ل شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى : ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافى : ص ٣٠ ــ مكتبة أسامة بن زيد ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

ـ ٣ ـ

« غزاة لا أشاهدهم وسيف الغزو فى صدرى »

حديثنا فى هذا الفصل عن الوسائل التى أدت إلى هذه التبعية الثقافية، بل إلى ما هو أسوأ من التبعية ، أدت إلى ما نُطلق عليه : جيل الشتات الفكرى والثقافى ، المصاب بمرض نقص المناعة المكتسبة (على حد تعبير الأستاذة الجليلة الدكتورة بنت الشاطئ) .

وهذه الوسائل من التنوع ، والكثرة ، والتعاون والتداخل بحيث لا يمكن الحديث عن كل واحدة منها بالتفصيل ، ومن هنا سنكتفى بسردها أولا ، ثم بعد ذلك نفصل بقدر ما تسمح به المساحة فى مثل هذا الموقف .

هذه الوسائل هى :

ـ الصحافة .

ـ التعليم .

ـ الفنون .

ـ البعثات الدراسية .

ـ التنصير .

ـ تشويه التاريخ .

ـ الجامعات .

ـ الحملة على اللغة العربية .

ـ تغيير القوانين ونظام التقاضى .

ـ إثارة النعرة القومية .

وهناك وسائل أخـرى ، يمكن أن تضاف إلى هذه الوسـائل ، ويمكن أن تعتبر نتيجة لهذه الوسائل مثل : زعزعة سلطان الدين .

الصحافة :

من نافلة القول أن نتحدث عن خطورة الصحافة وأثرها ، فى صياغة العـقول ، والعواطـف والمشاعر ، وتـوجيه الاتجـاهات والاهتمـامات ، والسيطرة الكاملة على الوجدان ، وبإيجاز صياغة الإنسان ، وإنشائه خلقا آخر ، لم يبق منه إلا صورة اللحم والدم .

ولا نستطـيع أن نتحدث عن الصحـافة من غير أن نعرّج عـلى هجرة الشوّام إلى مصر ، تلـك الهجرة التى تصور لنا الآن تزييفا وتـضليلا بأنها كانـت لجوءا إلى بـلد الأمن والأمـان ، والحرية والـنور ، إرضاءً لـغرور المصريين ، ثم تـصور بأنها حملت إلى مصـر بذور النهضة التى لم تـنبتها جبال لبنان ، فسقتها ورعتها وثمـرتها خصوبةُ مصر ، فبذلك يرضى غرور الطرفين .

ولكن عود على بـدء ، لنذكر وثيقة فيليـب حتى ، عن الأخويات ، والأديرة التى مـلأت لبنان منذ وقت مـبكر ، فتلك الأديـرة كانت لإعداد الفسائل وتجهيـزها، لإعادة غرسها وشتلها فى المكان المـناسب ، بعد حرثه وريه وتهيئته . كـان أبناء الشام هؤلاء كلهم قد تلقَّوا تدريـبهم الكامل فى الأديرة ، والكـنائس والمدارس الـتبشيـرية فى لبـنان ، إعدادا (للـنضال السلمى) الذى أشارت إليه وثيقتنا .

مطبعتهم ومطبعتنا :

من المغالطات الشائعة أن أول مطبعة عرفها الشرق جاءت مع نابليون، ثم عرفها المصريون وجاؤوا بمثلها بعد ذلك ، مع أن الواقع يثبت أن الأديرة والمراكز التبشيرية عرفت المطبعة قبل مصر بأكثر من مائة سنة [1]، فهناك تدربوا على الطباعة والكتابة ، بل والصحافة ، ثم أرسلوا إلى مصر ، كانت الأديرة ومراكز التبشير تصدر أكثر من صحيفة ، منها (المشرق) و(المبشر) . أما القول بأن مصر كانت الواحة التى استظلّوا بها ، فنقول نعم !! استظلّوا ولكن بالنفوذ الأجنبى الذى استشرى فى مصر منذ عهد محمد على ، ثم أوفى على الغاية فى عصر سعيد ومن بعده إسماعيل . إن مصر كما يقول الدكتور رشاد رشدى [2] : كانت مأوى رعاع أوربا ، منذ عهد محمد على ، ثم لم يمض عليها بعد بدء حكم محمد على أربعون عاما إلا وكانت فى قبضة الأجانب ، المرابين ، والمضاربين والمقامرين ، وكان أبناء الشام هؤلاء الذين جاؤوا لأداء دور (النضال السلمى) ، سواء منهم من كان يعرف ، ومن لم يكن يعرف ، كانوا أقرب إلى الأجانب منهم إلى المصريين .

فقد عاشوا فى جماعات مقفلة على أنفسهم ، لهم نواديهم الخاصة بهم ، ولهم مدارسهم ، ولهم كنائسهم ، ولهم مظاهرهم وعاداتهم ، لا يختلطون بالمصريين تعاليا واستكبارا ، وكان المصريون يلقبون الواحد منهم بالخواجة [3] .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ سورية : ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ــ مرجع سابق .

(٢) أمجاد الحاكم ومصير الشعوب ــ مقال بجريدة الأهرام : ١٧/ ٢/ ١٩٨٣ م .

(٣) مسعود ضاهر : الهجرة اللبنانية إلى مصر : ص ٢٦٩ ــ منشورات الجامعة اللبنانية ــ بيروت ــ ١٩٨٦ م .

ومن كان فى شـك من أن مجيئهم إلـى مصر كان مكيـدة وتدبيرا ، وليس كما علمـونا ، وكما احتفلوا بمجيئهم فى (مـئوية الهلال) من كان فى شك من ذلك أحيـله إلى كلام المؤرخ الأمريكى بيتـرجران ، فما أظنه برافض لـرأيه ، ولا راد لقولـه ، حيث يؤكد بـيترجران ، « أن حـكومة فرنسا سعت إلى غرس فئة من التـجار المارونيين الشوام فى الإسكندرية ، ودمياط ورشـيد ، كان ذلك مـنذ عهد لـويس السادس عـشر (١٧٥٤ ـ ١٧٩٣ م) ، والمدهش أن حـكومة الإدارة التزمت تمـاما بسياسة حـكومة لويس السادس عشر ـ بـعد أن أعدمت الملك التعيس نفسه ـ فـيما يتعلق بحماية وتبنى مصالح التجار المارونيين فى مصر » [١] .

وإن كنا قلـنا ذلك استنتاجـاً أو استشهاداً ، وهو صحـيح ـ إن شاء الله ـ فالواقع الملموس يكفي ، أليس من المعلوم المشهور أن جريدتين من كبريات صحف الـشوام : الأهرام والمقطم كانت تتنافـسان ، وتتناظران ، أى الاستعمارين أفضل ؟ الإنجليزى أو الفرنسى ، ولو قرأت شيئا مما كتب فى هذا لما قضيت العجب .

(اقرأ إن شئت شيـئا من هذه الملاحاة ، عند صلاح عـبد الصبور ، فى كتابه : قصة الضمير المـصرى الحديث : ١٥٣) وكان عبد الله النديم فيلسوف الوطنية يسمى صحـف هـؤلاء (جـرائـد الأجـراء) ، ويسمـى ما ينشرونه بـالقاذورات . (صلاح عبد الصبور ، قصة الـضمير المصرى الحديث : ١١٧) .

---

(١) سامى خـشبة : بدايات تحرر المجـتمع المصرى فـى القرن الثامـن عشر ـ مقال بـجريدة الأهرام : ١٤/ ١٠/ ١٩٨٣ م .

ولم يقف إنشاء صحف (الأجراء) عند الموارنة فقط ، بل رأيناه بعد ذلك حين أنشئت دار أخبار اليوم بأموال المخابرات الأمريكية (ضمن سلسلة دور أنشأتها فى الشرق الأوسط ، بل وفى ألمانيا) وذلك لتشكيل الوجدان ، وتهيئة المنطقة للاستعمار الأمريكى ، الوريث الأوحد للاستعمار الأوربى [1] . ثم كانت مجلة (الكاتب المصرى) التى أنشئت بأموال صهيونية سنة ١٩٤٥ م ، ووقع فى شراكها الدكتور طه حسين ، فكان رئيسا لتحريرها ، ثم توقفت سنة ١٩٤٨ م فجأة وبلا مقدمات ، وكان قد ثارت حولها الشبهات والشكوك ، وتحداها بعض الكتاب أن تستنكر جرائم الصهيونية علنا [2] .

وأما مجلة (حوار) التى أنشئت فى بيروت ، فقد أنشأتها المخابرات الأمريكية تحت اسم براق تصدرها (المنظمة العالمية لحرية الثقافة) ، وكان من غرائبها ـ وهى أمريكية ـ أن تستقطب أقلام اليسار المصرى ، فكان من كتابها الدكتور محمد مندور ، وكان عضوا فى لجنة جوائزها ، كما كان مندوبها فى مصر أحد زعانف اليسار الذين مكن لهم فى كبرى الصحف العربية لسر لا نعلمه ، مما يدل على أن المسألة ليست يسارا ويمينا، ولا شيوعية ورأسمالية ، وإنما مجلة ثقافية فى المنطقة لتمزيق ثقافتها ، وبعثرة رؤيتها ، المهم أن تتخلى عن قيمك الأصيلة ، ولو صرت ماركسيا ، فهذا هو المطلوب عند مجلة (حوار) .

لقد أعلنت (حوار) عن فلسفتها ، والقيم التى تؤمن بها ، فقالت

---

(١) راجع إن شئت محمد حسنين هيكل : الصحافة والسياسة : ص ٢٣١ .

(٢) د . على شلش : دليل المجلات الأدبية : ص ٨٣ ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ م .

تحت عنوان (بهذه القيم نؤمن) : « إن الحضارة الأوربية المنبثقة عن التقاليد اليونانية والرومانية والمسيحية ، ترتبط فى وعينا ببعض القيم ، وجماع هذه القيم يعطى صورة كاملة عن الإنسان الذى كونته هذه الحضارة ، إننا نصدر هذه المجلة ، ونحن نطمح إلى إثارة هذه المعركة فى الضمائر وتحريك القوى الثقافية والروحية فى سبيل الدفاع عنها ، مستمدين حيويتنا من الماضى والحاضر ، ومن الجيل الصاعد الذى يحمل رسالة فتية صافية .

وقد أعلن عن تبعيتها رسميا للمخابرات الأمريكية ، ثم توقفت عن الصدور، وعين رئيس تحريرها أستاذا بإحدى جامعات الولايات المتحدة وعين مندوبها فى القاهرة محررا بمجلة الطليعة التقدمية ، الصادرة عن مؤسسة الأهرام » [١] .

ولعل ما يؤكد حقيقة دور هذه الصحافة وخطورته ، وأنها كانت تؤدى دورا مرسوما بمهارة وحذق فى تمزيق ثقافة الأمة ، وبعثرة رؤيتها ، وحرمانها من أهم مقوماتها ، ما يؤكد ذلك هو قول المستشرق (جب) مستشار وزارة الخارجية الإنجليزية ، فى كتاب (إلى أين يتجه الإسلام)، وهو عبارة عن مجموعة أبحاث جادة لمجموعة من علماء الاستشراق ، تبحث فى واقع العالم الإسلامى ، وتطور أحواله ،وذلك بالطبع من باب التقييم لما مضى من مراحل (النضال السلمى) ، ولحسن التخطيط والكيد لما يستقبل من مراحل ، قال (جب) : « يجب ألا ينحصر الأمر فى الاعتماد على التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية ، بل يجب أن

---

(١) جلال كشك ، الماركسية والغزو الفكرى : ص ٣٥ ــ مكتبة الأمل بالكويت ــ ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٩ م .

يكون الاهتمام الأكبر منصرفا إلى خلق رأى عام ، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة . . . إن الصحافة هى أقوى الأدوات الأوربية ، وأعظمها نفوذا فى العالم الإسلامى ، ثم يقرر أن مديرى الصحف اليومية ينتمون فى معظمهم إلى من يسميهم التقدميين ؛ ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعا تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية . إنهم لا يلعبون دورا مهما فى تشكيل الرأى العام بالقياس إلى الأحداث المحلية فحسب ، ولكن صحفهم تحتوى كذلك على مقالات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية فى أوربا ، وعلى مقالات مترجمة عن الصحف الأوربية ، ثم هم فى الوقت نفسه يقفون الرأى العام على ما يجرى فى الغرب من أحداث ، وما يستحدث من آراء ، مبينين صدى ذلك فى بلاد الشرق. . . ثم يعرض بعد ذلك لصحافة العالم الإسلامى مبينا ما بينها من فروق ، فيقول : إن الصحافة التركية هى بطبيعة الحال وطنية لا دينية . وهى لا تجرؤ على أن تكون دينية ؛ لأنها مراقبة من الحكومة مراقبة شديدة .

أما الصحافة المصرية ، فهى على العكس من هذا الاتجاه الثورى ـ فهى تتطور ببطء ، وتعرض طائفة منوعة من الآراء الجديدة ، وهى على كل حال لا دينية فى اتجاهها . أما الصحافة فى البلاد العربية الأخرى فى غرب آسيا ، فهى أكثر تمسكا بالجامعة العربية . أما الصحافة فى الهند ، فلا يزال سلطان الدين عليها قوياً » (١) .

فإذا أدركنا أن ذلك الكتاب (التقرير) كان فى سنة ١٩٣٢ م ، تُرى ماذا سيقول (جب) وأسلافه عن صحافتنا الآن ؟!

---

(١) انظر : د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية : ٢/٢١٧، ٢١٨ ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

وينقل صاحبا كتاب (التبشير والاستعمار) ، عن الوثائق التبشيرية قول المبشرين أنفسهم : « إننا نسعى إلى استغلال الصحافة استغلالا واسعا ، وإن المسلمين يكثرون من قراءة الصحف ، وقولهم: إنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص لـلتعبير عن الآراء المسيحية ، أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر ،وقولهم : لقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من الصحف ، إما مأجورة فى أكثر الأحيان ، أو بلا أجرة فى أحوال نادرة »(١) .

فإذا أضفنا إلى ذلك معرفتنا بحقيقة كثير من الشخصيات الذائعة الصيت فى ميدان الصحافة ، والكيد الذى كادوه للأمة؛ أدركنا أى دور كانت تؤديه صحافة هؤلاء ! ولنضرب مثلا بواحد فقط ، وفيه الكفاية .

بشارة تقلا :

أحد مؤسسى الأهرام ـــ جريدة العرب الكبرى ـ تلك الجريدة التى أسست على شفا جُرف هار ، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا .

« لم يهاجر آل تقلا من لبنان بسبب الاضطهاد أو ضغط السلطنة العثمانية ، فقد كانت هجرتهم بعد سنة ١٨٦٠ م بنحو ثلاثة عشر عاما ، وهى السنة التى صار فيها لبنان متصرفية تحكم بحاكم من قبل النصارى الأوربيين » (٢) . وتمتع سليم وبشارة تقلا رسميا بالحماية الفرنسية ، وأقام

---

(١) « مصطفى الخالدى ، د . عمر فروخ :التبشير والاستعمار : ص ٢١٤ ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٥٧ م .

(٢) مسعود ضاهر : الهجرة اللبنانية إلى مصر : ص ٢٦٣ ـ منشورات الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٨٦ م ، ومصطفى الخالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار : ص ١٥٠ مرجع سابق .

بشارة علاقة وثيقة بكبار الساسة الأوربيين ، خاصة الفرنسيين منهم والإنجليز ، وبحكومة روسيا القيصرية ، وبالسلطنة العثمانية ، وشاه إيران[1] . (انظر كيف يجمع كل هذه الأضداد ، وبخاصة السلطنة العثمانية، مع روسيا القيصرية !!) .

« هذا الذى يتمتع بالحماية الفرنسية رسميا » ينضم إلى العرابيين سرا، وينفخ فى نار الثورة ،حتى إذا قامت الثورة بالفعل ؛ انقلبت جريدته (الأهرام) عليها ، مما اضطر الشعب إلى مهاجمتها ، وإشعال النار فى مبناها .

فإذا كان متمتعا بالحماية الفرنسية رسميا ـ أى أنه صنيعة فرنسية ـ فكيف انقلب على الثورة العرابية لحساب الإنجليز ؟

ثم كيف انضم إلى العرابيين سرا ، ودفعهم إلى الثورة . إن كثيرا من المؤرخين يحملون عرابى كارثة الاحتلال قائلين : إنه بسبب المرتبات والترقيات ، وبعض الإصلاحات أشعل ثورة ، اتخذها الإنجليز ذريعة لاجتياح البلاد ، وتشديد وطأتهم عليها . ومع أننا لا نقول بهذا الرأى ، إلا أن خداع بشارة تقلا هذا يجعلنا نتساءل فعلا : هل كانت الثورة مصيدة دفع إليها عرابى ؟

يقول عرابى فى مذكراته :

« وبعد ساعة جاء ليزورنى بشارة تقلا ، محرر جريدة الأهرام ، وظننتُ أنه قدم ليعزينى ، ويبدى عواطفه نحوى ، وقد كان ممن يدينون بمبدئنا قبل الحرب ، وقد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا ، وأنه يعمل

---

(١) الهجرة اللبنانية إلى مصر : ص ٢٦٤ ـ مرجع سابق .

لحرية وطننا ، وقد عددناه فى الحق من الوطنيين ، ولكنه لما دخل علىَّ توقح أشد التوقح ، ثم قال : أى عرابى ، ماذا صنعت ؟ وماذا حل بك؟ ورأيت أن الرجل خائن ولا شرف له » .

هكذا روى عرابى بأدبه الجم ، ولكن يقول بعض الناس من الثقات: إن بشارة تقلا بصق فى وجهه شامتا ، وطلبا لشفاء ما فى صدره ! (١) .

ألا يكفى بعضُ هذا ليشهد بما قامت عليه (الأهرام) .

ولمن شاء أن يتابع دراسة أحوال (الأهرام) ورؤساء ومديرى تحريرها، وعندها سيقول صارخا :

غزاة اليوم كالطاعون   يَخفَى وهو يستشرى .

(ولا يسمح المجال الآن بالحديث عن عوامل التبعية بأكثر من هذا ، فلندعه إلى مجال آخر) .

* * *

---

(١) انظر : محمود محمد شاكر (أستاذنا) : أباطيل وأسمار : ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ـ مطبعة المدنى ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٢ م .

ـ ٤ ـ

من مظاهر التبعية الثقافية

(صور العمى شتى وأقبحها إذا نظرت بغير عيونهن الهامُ)

من العسير استيفاء الحديث عن مظاهر هذه التبعية التى خيمت على واقعنا الثقافى فى كل مناحيه ، وجميع مؤسساته (١) ، فذلك أمرٌ على الكاتبين غير يسير ؛ ولذلك سنوجز هذا الأثر فى كلمات جوامع ، إخالها تشمل ما تشعب وتشعث من الأمر ، هذه الكلمات هى :

١ ـ بدهيات ومسلّمات كاذبة خاطئة .

٢ ـ مصطلحات ومفردات مستعارة لغير موضعها .

٣ ـ وجدان ممسوخ مشوه .

هذه هى آثار التبعية الثقافية ومظاهرها فى جملتها ، وسنحاول أن نوضح المقصود بكل واحدة من هذه الثلاث ، فى إيجاز شديد إن شاء الله .

بدهيات كاذبة :

فى البحث العلمى ، سواء كان فى مجال الرياضيات والطبيعيات ، أو فى مجال العلوم الإنسانية ، هناك مسلمات وبدهيات تتخذ أساسا

---

(١) نعنى بالطبع ما يمكن أن نسميه جزء الأمة الثقافى فقط ، بل نعنى النمط المسيطر فى هذا الجزء فقط والمخدوعين به . وإلا فلو حدثت معجزة غدا ، وأتيحت حرية الكلمة للجميع بالعدل والقسطاس ؛ لرأيت معدن الأمة الحقيقى ، ومثقفيها الأصلاء .

للاستنتاج ، ومنطلقات لبناء النظريات ، واستخلاص الأحكام .

وهذه البدهيات لا تكون محل نظر ، ولا موضع استدلال ، بل لا يرد على الخاطر مناقشتها ، أو اختبار صدقها ، والتثبت من صحتها ، من ذلك مثلا فى مجال الرياضيات والطبيعيات : (الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين ، مجموع زوايا المثلث يساوى ١٨٠ درجة ، الحديد يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة . . .) .

هذه البدهيات الثابتة لو دخلها الخلل ؛ لكان ذلك سببا فى فساد كل ما يُبنى عليها .

ونحن فى حياتنا الثقافية ، ودراساتنا الإنسانية ـ عندنا بدهيات شائعة يستعين بها الباحثون ، ولكنه اليقين الخادع الكاذب ، وعلى هذه البدهيات الكاذبة والمقدمات الفاسدة ، تقوم بحوث ، وتبنى أطروحات جامعية ، وتصدر أحكام ، وتتم أعمال فنية ـ وكلها فاسدة ـ كما تقول المناطقة ـ وهذه النتائج الفاسدة تعتبر بعد ذلك حقائق وبدهيات ، وبالتالى تبنى عليها أحكام أخرى ، وتوضع نظريات جديدة ، ويتنامى الخطأ ويشيع الخلل ، باسم العلم والبحث والمنهج ، ويصبح هذا الباطل حقا ، يؤمن به مثقفو هذا الزمان ويدافعون عنه ، ولا يقبلون فيه أى مراجعة أو مباحثة ، بل يتهمون من يحاول ذلك فى عقله وفكره ، إن لم يكن فى ضميره ونيته .

فمن هذه البدهيات الكاذبة :

١ ـ « إننا كنا نعيش فى ظلام وموات ، حتى جاءتنا الحملة الفرنسية» .

هذه المقولة بكل ما تحمله من معان ، بل وظلال ، وبما توحى به من مشاعر ، وتخلقه من عواطف ، تعتبر أولى الركائز فى ثقافتنا المغشوشة ، مع أنها عند البحث الأصيل الجاد باطلة لا أصل لها . فلم تكن الصورة بهذه القتامة والبشاعة التى يصورونها ، ففى الجانب السياسى ونظام الحكم

رأينا من يناقش أحد فرمانات السلطان ، مع نائبه فى مصر ، ومع القاضى، ولا يقبل التسليم بوجوب طاعة ولى الأمر بإطلاق ، بل يقول: إن هذا الفرمان لا يطاع السلطان فيه ، ويخالف أمره ؛ لأن ذلك مخالف للشرع ، ولا يسلم للسلطان فى فعل ما يخالف الشرع ، ولا لنائبه أيضا[1] .

هذه المناقشة الدستورية ، التى تنتهى بالحكم بعدم دستورية مرسوم سلطانى ، أليست كافية لفضح كل زيف مما يكتب عن الدور التحضيرى الذى لعبته الحملة الفرنسية ؟!

هذا المبدأ الخطير الذى يعلنه الشيخ المنصورى أحد علماء الأزهر فى سنة ١١٤٨ هـ ـ ١٧٣٥ م ـ قبل سقوط (الباستيل) بأكثر من نصف قرن ، قبل أن يفكر أى عقل غربى فى جواز مراجعة الملوك ، الذين كانوا يحكمون بمقتضى الحق الإلهى[2] .

وفى سنة ١٢٠٩ هـ ـ ١٧٩٤ م ، قبل مجىء الحملة الفرنسية بأربع سنوات ، كانت ثورة الجماهير على مظالم المماليك وشكواهم إلى العلماء، ومناقشة العلماء للمماليك ومطالبتهم برفع الظلم وإبطال المكوس والضرائب ، وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة ، وأن يكفوا أيديهم وأتباعهم عن الناس ، ولا ينصرف العلماء إلا بعد أن يكتب القاضى وثيقة بهذه الشروط ، ويوقعها الأمراء[3] .

ويعلق أستاذنا محمود محمد شاكر ـ أبو فهر ـ على هذه الواقعة

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ـ المشهور بتاريخ الجبرتى : ١/ ٢٢١ ـ دار الجيل ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

(٢) اقرأ : جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر : ص ٨٥ ـ دار الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

(٣) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار : ٢/ ١٦٦ ـ مرجع سابق .

بقولـه : « أخطأ الجبرتـى خطأ كبيـراً حين لم يثـبت فى كتابـه نص هذه الوثيقة كاملة وعليها توقيع الأمراء ، ولكن مضمونها على كل حال أفضل مئات المرات من وثيقة (الماجناكرتا) التى حاول الإنجليز تفسيرها على أنها ضمانة للحريات »[1] .

وحتى لا يتهمنا أحد بأننا (أمسيون) ننظر إلى الماضى ، ولا نرى فيه إلا كل مضىء بهيج ، دعونا ننظر إلـى طرف من تاريخ فرنسا التى زعموا أنها هى الـتى علمتنـا الحرية ، وأن الحكام بشـر ، يجوز عليهـم الخطأ ، ومن حق الشعب مسـاءلتهم ، ولن ننظر إلى فرنسا قـبل الثورة ، بل بعد الثورة ، بل بعـدها بسنوات ، بعد إعدام لويس الـسادس عشر ، وإعلان الجمهورية .

ـ بعد الثـورة بخمس عشرة سنة فى ١٥ أبريـل ١٨٠٤ م أعيد مبدأ وراثة العرش ، وتقرر أن يبقى فى أسرة نابليون .

ـ تحول الحكـم فى نفس السنـة إلى النظام الأمبـراطورى الوراثى ، وصدرت القوانين بالوظـائف والألقاب التى كانت فى جملتـها من نصيب إخوة نابليون وأقاربه .

ـ وزع الـولايات على أقـاربه ، فكانــت شقيـقته (باولـين) دوقة جواستـالا فى إيطاليـا ، وشقيقه (جـوزيف) ملكا عـلى مملكة نـابولى وصقلية،وشقيقه (لويس) ملكا علـى مملكة هولندة ، وشقيقته (إليزا) ملكة على إمارة لـوفا وتسكانيا ، وزوج شقيقته (كـارولين) ملكا على دوقية برج وكليف[2] .

---

(١) رسالة فى الطـريق إلى ثقافتنا : ص ١٨٧ ـ دار الـهلال ـ سلسلة كتـاب الهلال ،العدد رقم ٤٨٩ ـ القاهرة ـ سبتمبر سنة ١٩٩١ م .

(٢) د. محمد فؤاد شكرى : الصـراع بين البـرجوازية والإقطاع :٢/ ٥٩ ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة . (انظر الباب كله لترى كيف كانت تحكم بلاد النور) .

ــ كانــت كل السلطات بــيد الأمبراطور نابــليون ، ويسجل الــتاريخ قولته: « إن صــاحب الحكم لن يكون شــيئا مذكورا إذا لم يــكن هو كل شيء » .

ــ صنع دستورا يبيح له حق نقض أحكام القضاء .

ــ وأعجبُ ما صنــعه أنه جعل حق الانتخاب للأغنــياء فقط ، الذين يدفعون القسط الأكبر من الضرائب [1] .

ــ أعاد نابليون قانون الطبــقات فى سنة ١٨٠٨ م ، واستحدث طبقة جديدة من النبلاء ؛ لأنه لم يكن منهــم ، وكان حريصا على أن يمزج بينها وبين طبقة النبلاء الأصيلة .

ــ حرص نابليــون على أن يقام له حفل تتويج فى كــنيسة نوتردام ، يباركه البابا .

ــ فرض الرقابة على الصحف ، وألزم كل صــحيفة بالتبرع بمبلغ من المال للإنفاق على جهاز الرقابة ، أى أن الصحف تتحمل نفقات الرقابة .

ــ أصدر قانــون المطبوعات والرقــابة على الصحــف سنة ١٨١١ م ، وأغلق كثيرا من الصحف ، واستولى على بعضها بدون تعويض [2] .

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى : الصراع بين البرجوازية والإقطاع : ٢/ ٦٢ ــ مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق نفسه : ٢/ ٦٨ .

(لاحظ أن قانون المطبوعات هذا صدر عندنا فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ م إبان الثورة العرابية ، ثم توقف العمل به ، ثم أعاده إلى الحياة مرة ثانية بطرس غالى باشا رئيس الوزراء فى مارس سنة ١٩٠٩ م ، وكان ذلك واحدا من عدة أسباب أدت إلى اغتياله ، فهل كان هذا القانون هدية فرنسا إلينا ؟) .

ولننتقل بعد ذلك إلى عهد لويس الثامن عشر ، الذى تولى الحكم فى ٣ مايو سنة ١٨١٤ م ، ثم عزل وأعيد ثانية (بعد حكم المائة يوم المشهورة التى حكمها نابليون بعد عودته من منفاه) فى يوليوسنة ١٨١٥م. وعقب عودته قامت المذابح بين الكاثوليك والبروتستانت ، بدعوى أن البروتستانت أيدوا عودة نابليون ، فأوقع بهم الكاثوليك مذبحة عظيمة ، وعرفت هذه المذابح باسم (الإرهاب الأبيض) [1] .

ـ لقد عاد الملك لويس الثامن عشر فيما يعرف بالملكية الراجعة ، عاد لويس ليحكم باسم الحق الإلهى المقدس ، وعن هذا الحق كان يقاتل الكاثوليك ويذبحون البروتستانت .

ـ صنع لويس الثامن عشر مجلسا (برلمانا) أو صنع له ، بالانتخاب (الحر) ، فكان هذا المجلس (ملكيا متطرفا) ، حتى كان يسميه لويس بالمجلس المنقطع النظير ، وكان يقول لهم : لا تكونوا ملكيين أكثر من الملك [2] .

(بحق لقد علمتنا فرنسا) .

ـ ظلت الملكية المقدسة ، التى يحكم فيها الملك باسم الحق المقدس،

---

(١) المرجع السابق نفسه : ٢/ ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ٢/ ٤٩٥ .

وتنص على ذلك فى مقدمة الدستور حتى سنة ١٨٣٠ م [١] .

(ويكفى هذا من تاريخ بلاد النور) .

٢ ـ « إن اتصالنا بفرنسا هو الذى علمنا معنى الحرية ، وأخذ بيدنا فى مدارج الحضارة والنهضة » .

هذه البديهة هى الوجه الآخر لسابقتها ، وأحسب أن ما سلف عن تاريخ فرنسا التى ظلت تُحكم باسم الحق الإلهى المقدس بصورة علنية ، حتى سنة ١٨٣٠ م ، ثم بصورة مبطنة حتى سنة ١٨٤٨ م [٢] . (انظر وتأمل) ، ثم (متى كان عندنا من يحكم بالحق الإلهى المقدس؟) تكفينا هذه . لقد كان حكامنا يذهبون إلى مجالس العلماء ليتعلموا ، بل كانوا يسافرون إلى بلادهم ليسمعوا العلم منهم ، ولم يفكر واحد منهم أن يدعو العالم إلى قصره ، ويذكر من هؤلاء هارون الرشيد ، وصلاح الدين الأيوبى .

وإن كان هؤلاء يعنون أننا تعلمنا من فرنسا الصناعة والعلوم التطبيقية، فما أظن الفرق كان شاسعا ، بل إن النهضة التى كانت بلادنا تتمخض بها فى أكثر من جانب من ديار الإسلام ، كانت كفيلة بتدارك هذه الخطوة التى كانت قد سبقتنا بها أوربا ، لولا وقوعنا فى براثن الاستعمار ، وتدجينه لقادة الرأى والفكر فينا .

ولعلنا نذكر أن رجال الحرف والورش فى بولاق ، قد أنتجوا أسلحة، وطوروا أسلحة ، استخدمت فى ثورة القاهرة الثانية ، مما كان

---

(١) المرجع السابق نفسه : ٢/ ٥٠٩ .

(٢) سنة انتهاء ملكية يوليو ـ المرجع السابق نفسه : ٢/ ٥٣٤ .

من أسباب شعور الجيش الفرنسى باستحالة البقاء ، فبدأ فعلا يعد العدة للانسحاب .

إننا كنا نتمخض لنهضة أصيلة غير مضللة « منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثالث الهجرى ، منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، تذكر هذا ولا تنسَهْ أبدا ، فهو الذى يكشف لك اللثام عن التغرير الفاضح الذى طفحت به حياتنا الأدبية الفاسدة المهلكة » (١) .

وآية ذلك فى الجانب العلمى التطبيقى الذى يشنشنون به ، أن نجد «الشيخ حسن بن إبراهيم الجبرتى (١١١٠ ـ ١١٨٨ هـ ـ ١٦٩٨ ـ ١٧٧٤ م) . حنفيا كبيرا نابها ، عالما باللغة وعلم الكلام ، تصدر إماما مفتيا ، وهو فى الرابعة والثلاثين من عُمره ، ولكنه فى سنة ١١٤٤ هـ ـ ١٧٣١ م ولى وجهه شطر العلوم التى كانت تراثا مستغلقا على أهل زمانه، فجمع كتبها من كل مكان ، وحرص على لقاء من يعلم سر ألفاظها ورموزها ، وقضى فى ذلك عشر سنوات ، حتى ملك ناصية الرموز كلها ، فى الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كلها ، حتى النجارة والخراطة والحدادة والسمكرة ، والتجليد والنقش والموازين، وصار بيته زاخرا بكل أداة فى صناعة ، وكل آلة ، وصار إماما عالما أيضا فى أكثر الصناعات، ولجأ إليه مهرة الصناع فى كل صناعة يستفيدون من علمه ، ومارس كل ذلك بنفسه ، وعلم وأفاد ، حتى علم خدمه فى بيته، ويقول ابنه الجبرتى المؤرخ :

---

(١) محمود محمد شاكر (أستاذنا) : رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا : ص ١١٩ ـ مرجع سابق .

« وحضر إليه طلاب من الإفرنج ، وقرؤوا عليه علم الهندسة ، وذلك فى سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ ـ ١٧٤٦ م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ، ونشروا بها العلم من ذلك الوقت ، وأخرجوه من القوة إلى الفعل واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء ، وجر الأثقال ، واستنباط المياه ، وغير ذلك» (١) .

ولا يفوتنى أن أنقل لك هنا نصيحة أبى فهر أستاذنا الجليل ، قال :

« نصيحة وتنبيه : لا تنظر إلى الفرق الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحى والجنوب الإسلامى ، فإنك إن فعلت ضللت عن الحقيقة . والحقيقة يومئذ أن الفرق بيننا وبينهم كان خطوة واحدة تستدرك بالهمة والصبر والدأب والتصميم لا أكثر ، بل أكبر من ذلك ، فإن اليقظة الأوربية كانت بعد فى أول الطريق ، وتتكئ اتكاءً شديدا على ما كان عندنا من العلم المسطور فى كتبنا برموزه التى تحتاج إلى استبانة وفهم ، وعلى العلم الحى الذى عند أهل دار الإسلام ، كما حدثك الجبرتى المؤرخ عن أبيه الفقيه الجليل آنفا » (٢) .

فرق بيننا وبينهم :

« وكل الفرق بين يقظتنا ويقظتهم يومئذ ، أن يقظتنا كانت هادئة سليمة الطوية ، منبعثة من داخلها ، ليس لها هدف إلا استعادة شبابها

---

(١) المرجع السابق نفسه : ص ١٢ ، ١٢١ واقرأ إن شئت تاريخ الجبرتى : ٢/ ٤٤٥ ـ ٤٦٣ لترى أى نوع من العلماء كان هؤلاء. واقرأ أيضا: ودخلت الخيل الأزهر : ص ٨٨ ـ ٩٧ لترى أن الجبرتى الكبير لم يكن فردا ، وإنما هو نموذج لكثير من علماء عصره .

(٢) المصدر السابق نفسه : ص ١٢٣ .

ونضرتها فى حدود الإسلام .

وأما يقظتهم هم ، فكانت متفجرة بحقد قديمٍ مكظوم ،شيمته السطو الخفى وشَمْلُها مجتمع بالضغينة المتقادمة ، وهدفها إعداد العدة لاختراق دار الإسلام ، بالدهاء والخداع والمكر ، أى هما يقظتان كانتا فى زمن واحد ، إحداهما من طبيعتها الرفق المهذب ، والأخرى من طبيعتها العدوان الفاجر» (١) .

وإذا كانت هذه الشهادة عجيبة مفاجئة لك ، وكنت ممن يظنون أن العجز والتخلف مضروب علينا منذ قرون متطاولة ، وأن الآخرين سبقونا بمئات السنين ، فاسمع شهادة مؤرخ عصرى ثقة ، يعتمد فى تاريخه على ما قاله مؤرخو القوم أنفسهم ، قال الدكتور محمد فؤاد شكرى : « شهد عهد ملكية يوليو (١٨٣٠ م ــ ١٨٤٨) دور الانتقال من نظام الصناعات الصغيرة المنزلية ، إلى نظام المصانع والورش ، واستخدام الآلات والبخار فى الصناعة . وقد قطع هذا الدور شوطا كبيرا ، وظهرت نتيجة لهذا الانقلاب الصناعى عدة مشاكل » (٢) .

انظر وتأمل متى بدأ عصر التحول والانتقال من الصناعة المنزلية إلى عصر المصانع !! وتدبر فيما يقال لك .

ولعل أهم ما يقطع الشغب عنا أن ننقل شهادة مؤرخ أمريكى ، جاء إلى مصر ، وعاش بها ست سنين دأبا ، قضاها ــ وقد رأيناه ــ بين

---

(١)رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا : ص ١٢٤ ــ مرجع سابق .

(٢) الصراع بين البرجوازية والإقطاع : ٢/٥٢٧ ، ٥٢٨ ــ مرجع سابق .

المخطوطات والوثائق ، وسجلات ــ إعــارة الكتب (فى الفترة ١٧٦٠ ــ ١٨٤٠ م ــ التــى حددها موضــوع دراسته) وخرج بــدراسة وثائقــية عن ثقافة تلك الفترة ، وواقعها الاجتماعى والاقتصادى ، أخرجها فى كتاب، قال فــى مقدمتــه : « لقد أضــر الهجوم الــفرنسى عــلى مصــر بالطبــقات الوسطى ، وبالثقافة العقلانية التى كانت تفرزها ، وعلى أى حال ، كانت هذه الطبقــات فى وضع قريب من الأزمة فى ذلــك الوقت ، ولاشك أن التأثــير الفرنــسى عمل عــلى تعزيــز قرار الحكام المــصريين اللاحــقين؛كى يتحالفوا مع الأجــانب ، وفى الحدود التى يريدون فيها خلــق صفوة تقنية مدربة محليا وفى ظل الرعاية الأجنبية » [١] .

ثم قال : « ولم تكن أوربا فى القرن الثــامن عشر متقدمة فى الطب أو العلم بشكل مثير . ولقد برهنت على أن اختيارات محمد على فى هذه المجالات ، كــانت على مــا يبدو مدفــوعة بعوامــل سياسيــة ، أكثر منــها بالاعتبارات الفنية ، بالنسبة لما كان يحصل عليه .

أما الخــلاف الأكبــر حول التــأثيــر الأوربى ، فــهو أن المنــافســة بين الرأســماليــات قــد أضرت بمــصر ، وتركــتهــا بلــدا أكثر تــخلــفا وتــبعــية للخارج»(٢).

ثم يقول : « إن دراسة دقيقة لما كتبه المصريون فى النصف الثانى من القرن التاســع عشر ، بالمقارنة مع ما كــتبوه فى النصف الثــانى من القرن التاسع عشــر ، بالمقارنة مع ما كتبــوه فى النصف الثانى من الــقرن الثامن

---

(١) بيتــرجران : الجذور الإسلاميــة للرأسماليــة : ص ١٠ ــ دار الفــكر للدراسات والــنشر والتوزيع ــ القاهرة ١٩٩٣ م .

(٢) المرجع السابق نفسه : ص ١٠ .

عشر ، تبين أن البلاد فى الفترة الأخيرة (القرن التاسع عشر) كانت فى حالة انحطاط ثقافى .

هذه الفكرة تمثل مراجعة للمقولة الشائعة بأن مصر كانت تعانى فراغا ثقافياً ، وأن أوربا هى التى ملأت هذا الفراغ بالأفكار الحديثة ، إن نظرة فاحصة إلى مصر فى تلك الفترة توحى بشىء آخر تماما » [١] .

هذه شهادة مؤرخ أمريكي جاد ، ومع أنها لم تقدم جديدا ، ولا مزيداً عما قدمه شهودنا (من ذكرنا شهادتهم ومن لم نذكر) من حملة هموم هذه الأمة ، المرابطون فى مواقعهم الفكرية ، يذودون عن حصوننا، من يهدمونها من داخلها ، مع ذلك فأنا حفى بهذه الشهادة ؛ لأن لها وقعا لاشك ، عند (المثقفين) و(المنورين) و(المستنيرين) ، وآية ذلك أن كلام أئمتنا وشهودنا ، يتردد منذ أمد ليس بالقريب ، ولم نجد له صدى ، على حين نال كتاب (بيترجران) عناية نحو عشرة من الباحثين والعلماء ، ما بين ملخص وعارض ، وما بين مناقش وناقد ، وما بين مقرظ ومادح ، وهذا قبل أن يترجم ، أما بعد أن تُرجم ، فأرجو أن ينال عناية أكبر ، ليؤدى دوره فى تعديل ، وتصحيح هذه البدهيات الكاذبة .

٣ ــ « الاستعمار التركى كان سبب نكبتنا وتخلفنا » .

وهذه (البديهة) تتصل بما قبلها على نحو ما ، ولكنها بالطبع تعنى معنى آخر ، ولقد بلغ من سيطرة هذه البديهة أن الكتب المدرسية ، التى نشأنا عليها ، وينشأ عليها أبناؤنا ، كانت تبدأ بعض فصولها وأبوابها بمثل

---

(١) المرجع السابق نفسه : ١١ .

هذه العبارات :

« ولما أرخى الظلام التركى سدوله »،« بدأ العصر الحديث بانقشاع الظلام التركى»،«استيقظ الشرق على طلقات مدافع نابليون »،« لما تحررنا من النير العثمانى » .

وأعتقد أنه ليس من العلم ، ولا من المنهج ، ولا من الإنصاف أن نحكم على العصر العثمانى الذى استمر نحو خمسة قرون بهذه الأحكام المطلقة ، فذلك مخالف لبديهة العقل ، فمحال أن يستمر نظام بهذا الوصف كل هذه القرون .

ثم هل يصح أن تسمى علاقتنا بالدولة العليا استعمارا ؟

ومن العجيب أن هناك دراسات جادة للدولة العثمانية ، لعلماء وباحثين لهم مكانتهم ولهم منزلتهم ، ولكن حتى يومنا هذا لا نجد أثرا لتصحيح هذه المسلمات الكاذبة فيما يكتب ويذاع .

٤ ـ « كان الاستعمار العثمانى ، يحول بيننا وبين أوربا عن عمد ، حتى نظل أسرى التخلف ويسهل عليه السيطرة علينا » .

وفى هذه المقولة كثير من ألوان التضليل ، فهى أولا : تفترض أن النور كان فى أوربا ، وأنه لا نهضة ولا يقظة إلا فى الاتصال بها ، وثانيا: إن العثمانيين أعداؤنا يريدون لنا القهر والإذلال ، بعد التخلف والانحطاط . وثالثا : تفترض أن مصر لم تكن بينها وبين أوربا أية علاقة حتى جاءنا نابليون ، وهذا فيه غسيل للوجدان بعد غسيل المخ ، حيث

ينزع منا أية عاطفة كره ، أو غضب ، أو مجرد ألم تجاه (نابليون) وما فعله بأمتنا من سفك لدماء أبنائها ، وتدمير لحضارتها ، ونهب لوثائقها ومخطوطاتها ، واستنزاف لخيراتها .

ثم نسأل : كيف كانت مصر فى قطيعة عن أوربا ونورها ــ هذا على فرض أنه كان لديها نور [١] ــ وكانت تجارة أوربا تمر فى معظمها عبر الديار المصرية ، وكان تجار أوربا ، وطلابها ، وعلماؤها المستشرقون ، يروحون ويغدون فى أنحاء مصر والشام ، وفى إحصائية أكاديمية للدكتور حلمى محروس إسماعيل بعنوان (دراسات فى الحالة الاجتماعية فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر) يذكر أن عدد الأوربيين فى مصر سنة ١٨١١ م ــ أى قبل أن يثبت محمد على أقدامه ــ كان ٩٥٠٠ تسعة آلاف وخمسمائة أوربى [٢] .

ولعل فى عبارة الجبرتى ما يؤكد أن تجار أوربا كان لهم وجود ملحوظ فى مصر قبل مجىء نابليون . قال : « وعندما هجم نابليون ، طلب الأمراء التجار من الإفرنج بمصر فحبسوا بعضهم بالقلعة ، وبعضهم بأماكن الأمراء ، وصاروا يفتشون فى محلات الإفرنج على الأسلحة وغيرها »[٣] . فيفهم من العبارة أن العدد كان أكبر مما تحتويه السجون بالقلعة أو غيرها ، فوضعوهم فى بيوت الأمراء ، تحت حراستهم ، كما أن محلاتهم وأماكنهم كانت معروفة مما يدل على طول إقامتهم ، ومكانتهم أيضا .

---

(١) اقرأ ما سلف فقرة : ١ ، ٢ من هذا الفصل .
(٢) الهجرة اللبنانية إلى مصر : ص ١٣٠ ــ مرجع سابق .
(٣) تاريخ الجبرتى : ٢/ ١٨٧ .

٥ ـ « إن مصر كانت واحة الأمن والأمان والرخاء والنهضة منذ عهد محمد على ، ومن أجل هذا لجأ إليها أهل الشام ، بما لديهم من (علم) و(فكر) و(فن) و(خبرة) بالصحافة والتجارة ... إلخ » .

وهذه أيضا إحدى المقولات الباطلة ، بل أشد بطلانا ككل ما سبقها، فالواقع أن مصر بدأت عصر النزيف لقوتها وثروتها ، وشخصيتها وثقافتها، بل وكينونتها منذ بدأ محمد على يقع تحت تأثير قناصل الدول الغربية (وبخاصة فرنسا) ويتنكر للقوى الوطنية التى كانت كما رأينا ـ فى أيام الحكم العثمانى ـ تناقش الوالى التركى ، وتحكم بعدم دستورية فرمان السلطان العثمانى ، وتنصر العامة والفلاحين على الأمراء المماليك ، وتنتزع لهم وثيقة مكتوبة بحقوقهم .

منذ ذلك التاريخ ، بدأت مصر طريق الضياع . (ويقولون نهضة).

« إننا جئنا إلى مصر قبل الأوان » :

هذه العبارة قالها أحد قواد الحملة الفرنسية المدحورة ـ قالها وهو يتمزق حسرة عند مغادرته مصر ، مذؤما مدحورا !! فأى أوان كان يقصد هذا القائد المحنك ؟

إن مصر قبل عصر النهضة استطاعت فى أقل من عشر سنين ، أن ترد حملتين عسكريتين غادرتين ، لأكبر دولتين استعماريتين : الحملة الفرنسية التى جاءت سنة ١٧٩٨ م ، ولم تستقر لها قدم ، والحملة الإنجليزية (حملة فريزر) التى جاءت سنة ١٩٠٧ م ، فلم تستطع أن تضع قدمها على أرض مصر .

نعم جاؤوا قبل الأوان .

لم يكن (الرجل الأبيض) قد قام (بأمانة التمدين والتحضير والتثقيف) ، وكانت المباراة بين فرنسا وإنجلترا فى حرث الأرض وتهيئتها، وإعدادها ، حتى يجىء الأوان ، وكان نفوذ فرنسا هو الأقوى فى بادئ الأمر ، فالبعثات كانت لفرنسا ، والخبراء من فرنسا ، والمستشارون من فرنسا ، والذين استنزفوا ثروة مصر فى تسليح جيش محمد على من فرنسا ، وهم الذين دفعوه لتحطيم النهضة السلفية فى السعودية ، متسترين وراء خدمة الدولة العلية ، ثم هم الذين دفعوه بعد لحرب الدولة العلية ،حتى استنزفت كل قواه وقدراته ، وكان المرابون فى الانتظار ليقدموا قروضهم فى براءة ، بل وفى مروءة .

بل إن فرنسا فكرت ذات يوم فى أن تدفع محمد على إلى الاستيلاء على الجزائر ، وبذلك تكون الجزائر فى يدها عن طريق صديقها محمد على .

وهم الذين زرعوا الموارنة ليؤدوا دورهم ، وقد كان ، وجاء الأوان، ولكن إنجلترا كانت أسبق إلى الثمرة فقطفتها قبل فرنسا ؛ لأن فرنسا كانت قد غصت بالجزائر التى ابتلعتها منذ ١٨٣٠ م ، وكانت تحاول ازدرادها على مشقة .

٦ ــ « إن التاريخ الإسلامى لم يعرف العدل والإنصاف ، إلا فى فترة شاذة، كانت فلته ، وهى عصر عمر ــ رضى الله عنه » .

هذه البديهة لا أقول خاطئة كاذبة فقط ، بل أقول : جاهلة فاجرة ، انطلاقا من هذه المسلمة تصدر كل يوم مئات الأحكام ، على رجال ، ومواقف ، ودول وتفسر فى ضوئها أحداث ، ومواقع . . .

وقصاراها فى النهاية تنحية الدين عن المجتمع .

ومناقشة مقولة مثل هذه وإسقاطـها أمر يشعر الإنسان معه بالمرارة فى الحلق ، وضيـق فى الصدر ، فتعـسا لزمان يحتـاج فيه مثل هذا الـتاريخ الذى ارتاد لـلبشريـة طريق الرقـى ، والنبل ، والـطهارة ، والسـماحة ، والعدالة أكثر من ألـف عام . تعسا لزمان يحتاج فيه مـثل هذا التاريخ إلى دفاع .

ومـن يـك ذا فمٍ مـرٍّ مريض ... يـجد مـرا به الماء الزلالا

وليس يصح فى الأذهان شىء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

٧ ــ «إن تنحية الدين عن المجتمع سبيل النهضة والانطلاق والتحرر» .

وقد عبر عن هذه المقولة أحد أعمدة (الثقافة) و(التنوير) قائلا : « إن أقصى آماله أن يخـتفى الدين من الحياة المصرية تمامـا ، فلا يبقى له أثر إلا تلك العـلاقة الخفية بين المرء وربه (هذا إن أراد الإنسـان التمسك بهذه الـبقية) . أما تغـلغل الدين فـى حياتنا الـعامة ، فلابد من الـقضاء عليـه ، فبالقضاء عـليه ــ فقـط ــ تستأصـل السلبية الـعميقة مـن نفوس المصريين ، وتحل محلها إيجابية ثورية حيوية بناءة !! » أ . هـ بنصه .

ومن العجيب أنه بعد انهيار الماركـسية ، وظهور عـارهـا وعوارهـا ، ما زال كثيـر من هؤلاء على موقـفهم هذا فى الديـن ، وإن كان فى هذه المرة لحساب إسرائيل صراحة أو ضمنا .

٨ ــ « إننا دخلنا فى عصر التخلف والانـحطاط منذ القرن الرابع الهجرى ، فانقطع الإبداع والمبدعون ، ولم يبق إلا النقل واجترار ما سبق» .

والخطير فى هذه المقولة أن كثيرا من العاملين فى الحقل الإسلامى ، والذين يسمون بالإسلاميين يعتقدون صدق هذه (المسلمة) .

ولم أر مقالة يعذر أصحابها مثل هذه المقالة ، « فالناس أعداء ما جهلوا » .

وأقول تعليقا على هذه (البديهة) :

ـ ماذا قرأتم من تراث هذه العصور ، وإنتاجها ؟

إن بعض هؤلاء لا يعرف كيف ينطق أسماء الأئمة المؤلفين ، بَلْهَ أسماء كتبهم ، أما أن يقرأ منها صفحة ، فذلك أمر لا نسأله عنه ولا ننتظره منه . ولكنها أحكام (معلبة) جاءتنا من الغرب عبر المستشرقين ، وتلاميذهم (المنورين) .

ـ ثم السؤال الأوجع : ماذا أبدعتم فى (قرنى) النهضة ؟

ونكتفى بهذه (البدهيات) الكاذبة مع أن هناك غيرها كثير ، ولكنه يمكن أن يرجع إليها ويشتق منها .

* * *

لماذا ؟

لا أدرى لماذا تظل هذه المسلمات هى التى تحكم ثقافتنا ، وتوجه فكرنا ، فذلك أمر غير منطقى ، ولا مقبول فى ضوء الدراسات التى ظهرت منذ فترات طويلة ، دراسات جادة قام بها مفكرون أصلاء ، دراسات علمية أكاديمية ، وبعضها أطروحات جامعية ، هذه الدراسات أقامت الدليل على فساد هذه (البدهيات) التى استعرضناها . وفى موضوعية علمية رصينة تم تصحيح هذه (المقولات) .

ولكن لا ندرى أى يد تخنقها ، فلا تجعلها تصل إلى حيث يرجى لها، ما الذى يحول بين هذه التصويبات وكتب التعليم الأصلى (الابتدائى ــ الإعدادى ــ الثانوى؟) . إن بضع سطور فى كتاب مدرسى كافية لتشكيل وجدان تلميذ اليوم ، الذى هو رجل الغد .

ولكنها الديكتاتورية !! نعم ديكتاتورية ثقافية ، ديكتاتورية عجيبة غريبة ، هل أقول : ديكتاتورية (العلمانية) فى مقابلة الرأى الآخر .

مع أنهم لا حديث لهم إلا عن حرية الرأى ، وحق التعبير ، ولكن يبدو أن الحرية عندهم هى الجرأة على تراث الأمة ، وعلى ثقافتها الأصيلة.

ويكفيهم شهادة الأستاذ الكبير زكى نجيب محمود ــ وقد أشرنا إليها فيما سلف ــ : « بأنهم يبشرون بقيم لا يؤمنون بها » .

المصطلحات والمفردات :

وتتجلى هذه التبعية بصورة أكثر بشاعة فى الوقوع فى أسر (المصطلحات) و(المفردات) الغربية ، واستخدامها غافلين ، أو ذاهلين عن أثر ذلك ، وعن مدلوله ، وعما يعنيه من هيمنة لثقافة الغرب ، وللوقوع فى أسرها ، فالمصطلح يرتبط بسياق حضارى خاص ، وثمرة لتجارب وفلسفة خاصة بصاحبه ، ومن ثم يصبح نقله نقلاً ببغاويا، خطأ علميا وخطيئة منهجية ؛ لأنه يوحى بدلالات لا وجود لها فى السياق المنقول إليه ، بل ربما كان محملا بدلالات عكسية تماما ، ونحن للأسف «أدمنا نقل المصطلحات دون إعمال فكر ، أو اجتهاد ، ودون فحص أو

تمحيص ، وأصبحت العلوم الإنسانية العربية عقلُها فى أذنيها ، ننقل آخر ما نسمع بأمانة وموضوعية ، تبعثان على الضحك»[1].

يحدث هذا الآن ، على حين يرى من له أدنى إلمام بتراثنا ، مدى عناية أئمتنا وعلمائنا بضبط المصطلح ، وإدراك أثر ذلك ، والتحذير من أى خلل أو خلط فى هذا المجال ، نبهوا إلى ذلك فى مقدمات كتبهم كلها تقريبا ، وألفوا فى المصطلحات كتبا خاصة ، فمما جاء فى مقدمات الكتب ، قول إمام الحرمين الجوينى : « اعلم أنه لا يتم تحقيق النظر (أى البحث العلمى) لمن لا يكون مستوفيا لمعانى ما يجرى من أهل النظر فى معانى العبارات ، وحقائقها على التفصيل والتخصيص ، معرفة على التحقيق ، فتكون البداية إذاً بذكرها أحق ، وأصوب . فأول ما يجب البداية به ، بيان (الحد) ومعناه لتتحقق خواص حقائق العبارات وحدودها . . . » [2] .

ثم أفرد فصلا كاملا فى بيان (الحدود) المصطلحات للعلم الذى ألف الكتاب من أجله (علم الجدل) .

ويقول فى مفتتح كتابه (البرهان فى أصول الفقه) : « حق على كل من يحاول الخوض فى فنٍّ من فنون العلوم ، أن يحيط بالمقصود منه،

---

(١) الدكتور عبد الوهاب المسيرى ــ فى بحث لـه عن استيراد المصطلحات ــ مقدم إلى(ندوة إشكالية التحيز ــ رؤية معرفيـة ، ودعوة إلى الاجتهاد) عقد بالقاهرة فى ٩/ ٢/ ١٩٩٢ م برعاية نقابة المهندسين ، والمعهد العالمى للفكر الإسلامى . راجع : مقال فهمى هويدى ــ جريدة الأهرام القاهرية بعنوان (انتفاضة ثقافية ــ فى ٣/ ٣/ ١٩٩٢ م) .

(٢) الكافية فى الجـدل : تحقيق الدكتورة فوقية مـحمود ــ رحمها الله ــ القاهرة ــ دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) ــ ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩م .

وبالمواد التى منها يستمد ذلك الفن ، وبحقيقته وحده . . . والغرض من ذلك أن يكون الإقدام على تعلمه مع حظ من العلم الجملى بالعلم الذى يحاول الخوض فيه » [1] .

ويقول ابن حزم فى مقدمات كتابه (الإحكام فى أصول الأحكام) عن تحديد المصطلح وخطورته : « هذا باب خلط فيه كثير ممن تكلم فى معانيه ، وشبك بين المعانى ، وأوقع الأسماء على غير مسمياتها ، ومزج بين الحق والباطل ، فكثر لذلك الشغب والالتباس ، وعظمت المضرة ، وخفيت الحقائق ، ونحن ـ إن شاء الله تعالى بحوله وقوته ـ مميزون كل لفظة على حقيقتها . . . » [2] .

وأنت واجد فى ثنايا كتبهم الحديث عن (ألفاظ) أهل الصناعة (المختصين) وضرورة معرفتها ، والإحاطة بها ، حذرا من الخطأ والخلل والزلل .

وأما الكتب التى ألفت فى (المصطلحات والتعريفات) خاصة ، فهى كثيرة ، تشهد بعنايتنا مبكرا منذ فجر حضارتنا بهذا الشأن ، من هذه الكتب : رسالة للكندى الفيلسوف المتوفى ٢٥٢ هـ (فى حدود الأشياء ورسومها) ، وألف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف البلخى الخوارزمى الكاتب المتوفى ٣٨٧ هـ كتاب (مفاتيح العلوم) ، جمع فيه مصطلحات العلوم فى عصره ، ثم كان للشيخ الرئيس أبى على ابن سينا

---

(١) البرهان فى أصول الفقه : ١/ ٧٧ ـ تحقيق الدكتور عبد العظيم محمود الديب ـ مصر ـ المنصورة ـ دار الوفاء للطباعة والنشر ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

(٢) الإحكام فى أصول الأحكام : ١/ ٤١ ـ القاهرة ـ مكتبة عاطف ـ ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م.

المتوفى سنة ٤٢٨ هـ رسالة بعنوان الكندى نفسه : (فى حدود الأشياء ورسومها) ، ومن هذا أيضا : كتاب (الحدود) ، نشره نزيه حماد ـ بيروت ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٣ م ، لأبى الوليد الباجى المتوفى سنة ٤٧٤ هـ ، و(حلية الفقهاء) للرازى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، و(طلبة الطلبة) لنجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٣٧ هـ ، و(المغرب فى لغة الفقه) للمطرزى ، و(الفروق اللغوية) للعسكرى . وللآمدى سيف الدين أبى الحسن على بن أبى على بن محمد المتوفى سنة ٦٣١ هـ رسالة بعنوان (المبين عن معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين)، وأما الشريف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، فقد ألف كتابه المشهور (التعريفات) ، وجاء أبو البقاء أيوب بن موسى الحسينى الكفوى ، المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ فألف كتابه المعروف (الكليات)، ومن بعده جاء القاضى عبد النبى بن عبد الرسول الأحمد نكيرى الهندى المتوفى سنة ١١٧٣ هـ ، فألف كتاب (دستور العلماء أو جامع العلوم) ، وفى القرن الثانى عشر الهجرى ألف التهانوى محمد أعلى بن على بن القاضى محمد حامد بن محمد صابر الفاروقى المتوفى بعد سنة ١١٥٨ هـ كتابه الفذ (كشاف اصطلاحات الفنون) فى ستة مجلدات ، ومن الهند أيضا ، وضع الأمير العالم أبو الطيب صديق حسن خان ، البخارى القنوجى المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ كتابه (أبجد العلوم) [١] . وما زالت عناية العلماء والمجامع بتحرير المصطلحات وضبطها ، وإصدارها فى

---

(١) انظر : عمار طالبى ـ مقدمة تحقيق (المبين عن معانى ألفاظ الحكماء و المتكلمين) وقد طبعه باسم اصطلاحات الفلاسفة ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ ١٩٨٣ م ، ود . محمود الطناحى ـ الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريف العلوم ـ القاهرة ـ مكتبة الخانجى ـ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م .

مجموعات خاصة بكل فن تشهد بضرورة ضبط المصطلحات والعبارات ، لمن أراد الوصول إلى العلم الحق ، والسلامة من التشويش والتزييف .

هذا هو تراث أمتنا وهذه هي جهود أئمتنا ، وهذه هي أصالتنا وعراقتنا فى قضية المصطلح ، ولكن بعضا من بنى قومنا ثقل عليهم العلمُ بتراث أمتهم ، ولم يلتفتوا إلى تقاليدنا وأصالتنا ، ووقعوا فى أسر الثقافات الغازية ، وراحوا يرددون مفرداتها ، ومصطلحاتها ، ذاهلين عن الخطأ المنهجى ، والخطيئة العلمية فيما يفعلون .

وهاك نماذج لهذه المصطلحات المستوردة :

※ العالمية :

يتردد هذا المصطلح كثيرا على ألسنة وأقلام الكتاب والباحثين ، والمتتبع لسياقه ، وما يعنون به ؛ يجدهم يقصدون به (الغرب) والغرب فقط ، فهو فى الأصل اصطلاح أوربى غربى ، يطلقه هؤلاء على أنفسهم باعتبار أنهم (العالم) وما عداهم ، فهم كم مهمل لا وزن له . فهم يقولون مثلا : الحرب العالمية الأولى ، والحرب العالمية الثانية وهى فى الواقع حرب أوربية ، دارت أساسا بين محاور وتحالفات غربية ، والدول الأخرى التى أصابها منها شىء ، كانت تبعا لها ، ولا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولم تكن إلا وقودا لها .

ونحن نتحدث الآن عن العالمية فى الأدب (مثلا) ولا نقصد بذلك إلا الغرب ، فلو أن أديبا عربيا انتشرت أعماله فى كل البلاد العربية ، وترجمت إلى كل لغات إفريقية وآسيا ، بل وأمريكا اللاتينية ؛ لما عد أديبا عالميا ، ولا وصف بالعالمية ، ولكن لو ترجم له عمل واحد إلى الإنجليزية أو الفرنسية مثلا ؛ لحظى بوصف العالمية .

وينطبق هذا على كل الفنون والعلوم والصنائع ، « فالإعلام العالمى يُشيد بنا » يعنى إعلام الغرب ، « والمتاحف العالمية تُزهى بآثارنا » يعنى متاحف الغرب ، « والأسواق العالمية تحتفى بصناعتنا » يعنى أسواق الغرب، حتى فى مجال الرياضة « فاحتكاك الفريق القومى بالكرة العالمية » يعنى بفرق الغرب . . . إلخ .

وهكذا صار الغرب هو (العالم) ، ووقعنا فى أسر الرؤية الغربية بمجرد استخدام هذا المصطلح ، فليس الأمر لفظا نردده ، أو كلمة نكتبها، وإنما وراء هذا اللفظ نسق فكرى ، ومنظومة حضارية ، ومشاعر قومية .

*** عصر النهضة :**

« يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة (من القرن ١٤ ــ ١٦) ، ويدل مصطلح عصر النهضة غالبا على التيارات الثقافية والفكرية التى بدأت بإيطاليا فى القرن الرابع عشر ، وبدأت أوج ازدهارها فى القرنين ١٥ ، ١٦ . ومن إيطاليا انتشرت إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا والأراضى المنخفضة وانجلترا وإلى سائر أنحاء أوربا . وازدهرت النهضة الإيطالية برعاية آل ميديتشى فى فلورنسا ، وسفورتسا فى ميلانو ، والبابوات فى روما ، وغيرهم ، وكان أعظم شخصيات عصر النهضة: ليوناردو دافنشى ، ومايكل أنجلو ، وميكيافيلى وأرازموس، ورابليه ، ومونتينى ، وكان لهذه الحقبة تأثير كبير فى الفن والعمارة ، وتكوين العقل الحديث » .

هذا ما قالته الموسوعة الثقافية التى أصدرتها مؤسسة فرانكين الأمريكية ــ دار الشعب ــ القاهرة ــ ١٩٧٢ م .

هذا هو مصطلح (عصر النهضة) فى أصله وحقيقته ومعناه ، لكن نفرا من بنى جلدتنا راح يستعمل هذا المصطلح قاصدا به فى تاريخنا الفترة التى تبدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وبالتحديد منذ مجىء حملة نابليون على الشرق (وليس على مصر كما علمونا) ، ولعل الكثيرين من جيلنا يذكرون أن الحديث عن هذا العصر (عصر النهضة) كان يبدأ بهذه الجملة (استيقظ الشرق على طلقات مدافع نابليون) كذا !!

ثم يبدأ الحديث عن الخروج من عصور الظلام ، إلى النور الذى حملته إلينا الحملة الفرنسية ، بما جاءت به من وسائل حضارة ، نقلتنا إلى (عصر النهضة) بما جاءت به من أول مطبعة ، وأول مرسم خرائط ، وأول صحيفة ، وأول معمل كيميائى . . . إلى آخر ما يقولون من هذا الكلام .

فالواقع أن عصر النهضة هذا هو عصر (الاحتلال) ، فلأول مرة تخضع ديار الإسلام ، فى مصر والسودان وبلاد الشام ، والعراق والشمال الإفريقى كله ، وشرق إفريقية وغربها ، كل هذه الديار ديار الإسلام ، لم يطأها غاز ، ويفرض عليها قانونه وسطوته وسيطرته إلا فى هذا العصر ، عصر النهضة .

*** القرون الوسطى :**

هذا المصطلح يحمل مضمونا وإيحاءً بالتخلف والجمود والتحجر والانحطاط ، وهو نابت فى أرومته الأصلية ، الثقافة الأوربية ، وهذا يعنى القرون المظلمة التى عاشتها أوربا بعد انحطاط الرومان ، إلى حين بدأ عصر النهضة عندهم ، فاستخدام هذا المصطلح بهذا المدلول ، ولهذا الإيحاء ، أمر منطقى من المؤرخ الأوربى ، والمثقف الأوربى .

أما حينـما ينتزع من سـياقه الحضارى ، ومنبـته الثقافى ، ويـستخدم عندنا فذلك هو بـعينه الخلل المنهجى ، والفساد الأكـاديمى ، فتلك القرون كانت العصر الذهبى لأمتنا ، بالإضافة إلى الغوغائية المرذولة حينما يستخدم فى مواجهة من ينادون بالمحافظة على الذات ، والهوية الإسلامية .

*** الشرق الأوسط :**

للأسف هذا الـتعبير يتـردد اليوم على كل لـسان من مثقفـين وعلماء وباحـثين ، ومـؤرخين وسيـاسيين وحـكام ، وهـو يمثل قـمة الاسـتلاب الثقافى، والتبعية فى أبشع صورها ، فالمقصود بالشرق الأوسط هو (نحن) فأى بـلاء ،وأى تفريغ ثقافـى أفظـع مـن أن نـتحـدث عـن أنفـسنا بلـفظ (هم)!!

ومن العجيب أن (بـرنارد لويس) المستشرق اليهـودى ، وهو يحكى قصة هذا المصطلح ، لا يفوته أن يـسخر من شعوب الشرق الأوسط وهى تستعمل هذا التعبير [1] ، قال : « أول من أطلق هذا التعبير المؤرخ البحرى الأمريكى (الفردفاير ماهان) أطلقه فى سنة ١٩٠٢ م ليدل به على المنطقة الواقعة بين الـهند وشبه جزيرة العـرب ، والخليج الفارسى كمـركز لها من وجهة النظر الاستراتيجية البحريـة . إلا أن جريدة (التايمز) اللندنية تبنت هذا التعبير ، وتبعـتها فيما بعد الحكومة البريطانيـة . وهكذا شاع استعمال هذا التعـبير إلى جانب تـعبير آخر سبـقه بقليل وهـو (الشرق الأدنى) ، فكلا التعبيرين حديثان ، ولكنهما لـيسا عصريين ، فهما من مخلفات عالم

---

(١) برنارد لويس : الـغرب والشرق الأوسط ـ عرض موسـى حمود ـ مجلة الفـكر العربى ص ٢٨٤ ـ عدد خاص عن الاستشراق ـ تصدر عن مـعهد الإنماء العربى ـ بيروت ـ لبنان ـ العدد رقم ٣٢ ـ أبريل ـ يونيو سنة ١٩٨٣ م .

تحتل أوربا الغربية وسطه ، مستقطبة المناطق الأخرى حولها، وعلى الرغم من أن أحد هـذين التعـبيرين قـد بطل استـعماله، فـقد حظى (الـشرق الأوسط) بقبول عالمى ، وهو يستعمل الآن لـلدلالة على تلك المنطقة من قبل الروس ، والإفـريقيين والهنود الذيـن يشكلون على الـتوالى حدوده الشمالية والجنوبية ، والشرقـية . ومن الغريب أن شعوب الشرق الأوسط نفسها تستخدم هذا التعبير » .

*** التنوير :**

هذا اصـطلاح مستـورد أيضا ، فـهو يعنـى فى أصلـه عند أصحـابه (الغرب) : « الفترة التى اتسمت بنشاط علمى وثقافى عظيم ، وأطلق فى البدايـة على الحركة الـتى ظهرت بألمـانيا فى القـرن الثامن عشـر ، والتى استلهمت آراء كانـت وليسنج ، ويمتد المصطلح أحيانـا إلى انجلترا فى أيام (لوك) و(نيوتن) و(هويز) ، وإلى اسكـتلندا فى أيام (هيوم) و(آدم سميث) ، وإلى فرنسا فى أيام (مونتسكيو) ، و(فولتير) ، و(ديدرو) و(روسو) ، وتـشمل كـذلك حركـة التنـوير عصـر (بطرس الأكـبر) أمبراطـور روسيا ، و(فريدريـك) الثانى مـلك بروسيا ، والأمـبراطور جوزيف الثانى أمبراطور النمسا فى القرن الثامن عشر [1] أ . هـ .

وهو مثل سابقه (عصر النهضة) يطلـق عندنا تمجيدا للفترة التى تبدأ من النـصف الثانـى من القرن الـتاسع عشـر ، حيث راح النـقلة للـفكر الغربى، يغرقون فـى التبعية سطوا ، وتلخيصـا ، فكان الأولى أن يسمى

---

(١) الموسوعة الثقافية ــ نشر مؤسسة فرانكين ــ مرجع سابق .

عصر الضلال الفكرى .

*** عصر الكشوف الجغرافية :**

يستخدم هذا المصطلح للدلالة على فترة النشاط البحرى البرتغالى والإسبانى ، والغربى عامة ، التى كان الغرض منها تطويق العالم الإسلامى ، والالتفاف حول ثغوره ، حذرا وخوفا من المغامرة باقتحامه،على حد تعبير كبير المؤرخين الإنجليز فى العصر الحاضر (أرنولد توينبى) [١] . ثم كيف يجوز لنا أن نستخدم هذا (المصطلح) والمقصود به (اكتشافنا نحن ؟) ، ليقل الغرب ما شاء عن (الاكتشافات) وعصر (الكشوف) فهو المكتشف (بكسر الشين) ، أما نحن ، فكيف نجيز هذا التعبير ، ونجريه على ألسنتنا ، وأقلامنا ، ونحن المكتشفون (بفتح الشين) ، هل نحن نعترف بعدم وجودنا قبل أن يكتشفنا الغرب ؟

لقد كان المكتشفون وهم يطوفون العالم الإسلامى ، يرفعون الصليب ، وينادون : « الصليب أو المدفع » فهى ـ أيضا ـ غارة وليست كشوفا جغرافية .

* * *

ورغبة فى الإيجاز نشير إلى عدد من المصطلحات ـ لا على سبيل الحصر ـ مجرد سرد بدون تفصيل وبيان ، فمنها :

ـ العقلانية .

---

(١) العالم والغرب عن محمود شاكر (أستاذنا) : أباطيل وأسمار : ص ٢٢٨ ـــ مرجع سابق .

ـ الشارع (من التشريع) .

ـ التجديد .

ـ الإقطاع .

ـ السلفية .

ـ الإصلاح الدينى .

ـ الاجتهاد .

ـ تجديد الفكر الدينى .

ـ الأصولية .

ـ اليمين واليسار .

ومن الطريف أن الإمام ابن باديس كان يقول ـ فى مقابلة هذا المصطلح : « اللهم اجعلنى فى الدنيا من أهل اليسار (أى الغنى) وفى الآخرة من أهل اليمين » مشيرا بهذا الدعاء الطريف إلى اختلاف معنى ـ المصطلح عندنا تماما عن مورده الذى جاء منه .

وفى مجال الدراسات الأدبية والمذاهب الفكرية :

ـ الكلاسيكية .

ـ الواقعية .

ـ الحداثة .

ـ الرومانتيكية .

ـ اللامعقول .

أما المفردات التى تستخدم كل صباح ومساء تبعا للآخرين ، فلا تقع تحت حصر ، ويكفى أن نذكر منها النماذج الآتية :

التحجر ـ الرجعية ـ الإرهاب ـ التطرف ـ الاعتدال ـ الطائفية ـ الظلامية ـ الجمود ـ الخطيئة ـ الصلب ـ الخلاص ـ الفداء .

ثالثا : تشكيل الوجدان :

ونعنى بهذا : السيطرة على الجانب العاطفى والانفعالى فى الإنسان ، وهى مرحلة أبعد وأبلغ من الجانب الفكرى والمعرفى ، لا تكون إلا بعد مرحلة طويلة من الخضوع الفكرى ، والتبعية الكاملة والاستسلام لكل ما يلقى إلى الإنسان ، ثم يكون تشكيل الوجدان وصياغته ، وهذا غاية التبعية الثقافية ونهايتها ، ولا يكون إلا بعد الانهيار الكامل للثقافة الأصيلة (الأم) ، ولهذا لا يتم ذلك فى جيل واحد بل فى عدة أجيال . يتضح ذلك من الفرق بين جيل (المندهش الأعظم) [١] رفاعة الطهطاوى وجيل المتغربين الذين يعيشون بيننا .

فالذى نعنيه (بتشكيل الوجدان) هو الوصول إلى درجة استحسان التابع كل ما يصدر عن المتبوع ، والذى يمكن أن يكون تعبيرا عنه المثل القائل : « حبك الشيء يعمى ويصم » ، ذلك المثل الذى ترجمته العامة : مرآة الحب عمياء . ولكن الأبلغ هو قول الشاعر :

---

(١) هذا اللقب ليس من عندى ، وإنما هو من صياغة الشاعر صلاح عبد الصبور ـ قصة الضمير المصرى الحديث : ص ٣٧ مرجع سابق .

يقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

حينما يصل المستلب ثقافيا إلى هذا الحد (تشكيل الوجدان) أو إن شئت قلت : « مسخ الوجدان » ، حينما يصل إلى ذلك يصعب ــ إن لم نقل يستحيل ــ الحوار معه أو تعديل رأيه ، أو حتى أن يسمع لك مجرد الاستماع .

* وربما كان الأديب الكبير توفيق الحكيم ــ وهو عقل كبير لاشك ــ يمثل هذا حينما يكتب مستهزئا ساخرا بشعيرة من الشعائر الإسلامية ، ألا وهى الأضحية ، حينما يكتب مقالا ضافيا يظهر الأسى على الخراف والألم والحزن لذبحها من غير ذنبٍ جنته ، وأجرى بقلمه الرشيق كلاماً لاذعا على لسان خروف العيد ، وجهه إلى الإنسان [1] .

يقول هذا مع أنه عاش فى فرنسا سنين عددا ، ورأى عادة القوم فى ذبح الديك الرومى فى عيد الميلاد ، واتخاذ ذلك شعيرة من شعائر عيدهم، ولكنه لم يألم للديك الرومى ، بل لعله كان ينظر إلى هذا العمل من الفرنسيين على أنه من علامة الرقة والخفة والنعومة الفرنسية .

* ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك أننا « قرأنا خطابا مغاربيا صدر أخيرا عن شخصيات نافذة ، تبدى أسفا لتلك المصادفة غير السعيدة ، التى أوجدت شيئا اسمه (البحر المتوسط) ، كان من شأنه أن يفصل منطقة المغرب عن أوربا ، ويعبر الخطاب عن رغبة حارة فى إحياء وتجديد تلك الوشائج التى لم تتصل ، فربما أمكن إنشاء تاريخ جديد يصحح خطيئة

---

(١) اقرأ المقال فى مجلة الرسالة ــ العدد رقم ٢٩١ الصادر فى ١٩٣١/٦/٣٠ م .

الجغرافيا »[1] .

وربما يشهد لذلك الحساسية المفرطة ضد كل ما هو دينى ، لا بل ما يشير إلى الدين ، من ذلك ما كتبه أستاذ الفلسفة [2] بعنوان : (معركتنا والتفكير اللاعقلى) ، كتب فى هذا المقال يستنكر ما شاع بين الناس من حمد وشكر لله على النصر ، ومن ربطهم بين النصر والتقوى وقوة الإيمان ، كتب يقول : « أستطيع أن أفهم ، وإن لم أكن أستطيع أن أغفر انتشار ألوان من التفكير اللاعقلى بيننا بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ م ، أستطيع أن أفهم ذلك . . . وأؤكد أننى لا أستطيع أن أغتفر هذا اللون حتى فى مرحلة الهزيمة » . . ثم يستمر مندداً بهذا التفكير (الدينى) الذى يسميه خرافة . ولما يتذكر أن إسرائيل عدونا العنيد تقوم على غرس الدين والرؤية التوراتية فى كل مناحى حياتها . يقول بالحرف الواحد :

« إسرائيل إذن فكرة تقوم أصلا على الخرافة ، وفى وسعنا أن نستغل الميول العلمانية القوية التى تسود المجتمعات الغربية ، فى محاربة إسرائيل بسلاح لن يكلفنا شيئا (!!) ولكنه فى نظر العقول المستنيرة سلاحٌ فعال إلى أقصى الحدود . أما إذا التجأنا نحن بدورنا إلى اللامعقول ، فإننا نضيع بذلك على أنفسنا فرصة رائعة للتفوق المعنوى على العدو فى نظر العالم المتحضر » أ . هـ . بنصه .

انظر « الغرب لا يعرف الواقع الإسرائيلى ، وفلسفة المجتمع الإسرائيلى ، وتمسكه بالتوراة والطاقية السوداء على رأس رئيس الوزراء

---

(١) فهمى هويدى ـ مقال بعنوان تفكيك الأمة ـ جريدة الأهرام ـ ١٩٩١ م .

(٢) الدكتور فؤاد زكريا ـ مقال بجريدة الأهرام ـ ١٨/ ١١/ ١٩٧٣ م .

فى مؤتمر مدريد ، وامتناع ابن جوريون عن ركوب السيارة يوم تشييع جنازة تشرشل ، وإرباك الجنازة العالمية كلها بإصراره على المشى على قدميه . . . كل ذلك الغرب لا يعرفه . ونحن سنعرفه للغرب ، ونقول لهم : انظروا ، إسرائيل تقوم على الخرافة ، أما نحن فقد تخلينا عن الدين تماما ، وأصبحنا علمانيين أكثر منكم . وعندها سينقلب الغرب على إسرائيل (المخرفة) ويزيلها من الوجود ، هذا هو « السلاح الخطير الفعال فى نظر العقول المستنيرة ، والذى يمكن أن ننسف به إسرائيل » .

ثم ينكر معنى الإيمان المتبادر إلى الذهن ، فيهرب منه حين يضطر للاعتراف بقيمة الإيمان ، ولعله اضطر لذلك ممالأة للسلطان ، الذى اتخذ شعاره يومذاك (دولة العلم والإيمان) ، ولكن صاحبنا يجد للإيمان معنى جديدا ، فيقول : « الإيمان يتمثل فى تلك الرغبة الجارفة ، التى ازدادت كل يوم إلحاحا طوال ست سنوات ، فى تحرير قطعة عزيزة من أرض الوطن ، وفى تبديد خرافة الجيش الذى لا يقهر ، والجيوش العربية التى تفر من أول طلقة ، وفى مسح عار سنة ١٩٦٧ م والأهم من ذلك ، الإيمان بأن هناك قضية عادلة تستحق أن يضحى المرء بحياته من أجلها . هؤلاء جميعا كانوا جنود الخفاء الذين قاتلوا معنا ، والذين رفرفوا بأجنحتهم البيضاء الناصعة محلقين فى سماء المعركة ، والذين تمكنا بفضلهم من تقديم أروع الأمثلة فى الشجاعة ، وتحقيق نتائج عسكرية لم يكن يتوقعها أشد أنصارنا تفاؤلا » أ . هـ . بنصه .

أرأيت ؟ حينما اضطر إلى مصطلح (الإيمان) جعله إيمانا بالقضية ، والرغبة فى هزيمة العدو . . . و . . . و . . . وكأننا كنا فى سنة ١٩٦٧ م لا نحب وطننا ، ولا نريد أن نهزم إسرائيل .

* وربما كان من أظهر الأمثلة على ذلك أيضاً تلك القضية التى أثارتها الصحف المصرية فى أول العام الدراسى هذا ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ م ، حين صممت إحدى مدارس البنات زيها الخاص (اليونيفورم) وجعلت غطاء الرأس (الإيشارب) ، فهاجت الصحف ، وكتب أصحاب (الأعمدة) اليومية كلهم تقريباً ، واستعدوا الوزير على إدارة المدرسة ، وقدمت المديرة للتحقيق ، مع أن كل المدارس الخاصة لها زيها الخاص ، ومنه غطاء الرأس ، ولكن خطيئة هذه المدرسة أنها اختارت (الإيشارب) وهو يشبه الحجاب ، أو يستخدم فى الحجاب ، أما لو اختارت مثل الآخرين : القبعة . على أى شكل من أشكالها (مستديرة) أو (مقببة) عليها ريشة، أو عليها شريط ، لها (رفرف) من جلد أو من قماش ، لونها أحمر أو أزرق . . . أو . . . وكل ذلك موجود فعلا .

لو غطت الرأس بأى شىء كان ، مهما كان شكله وثمنه ، ومهما كانت المدرسة تتاجر فيه ، فهذا (تقدم) و(استنارة) (مثلهم) و(تشبه بهم) أما (الإيشارب) فهو علم على (حضارة) ورمز (لثقافة) تخطاها الزمن .

* وذات يوم كان نقاش حول الخرافة ، وأثرها فى المجتمعات البدائية، وخطورة الأمية وتحالفها مع الخرافة ، ومال بنا الحديث يمينا وشمالا ، فذكرت لصاحبى موقفا تعرضتُ له بسبب الخرافة ، حين ركبت الطائرة من ميونيخ إلى لندن وأخطأت فى الجلوس فى الصف المحدد لى؛ لأنى عددت الصفوف بيدى ، وأنا أسير بين المقاعد ، ولم أنظر إلى أعلى لأقرأ الأرقام ، حيث إن الطائرة أسقطت رقم ١٣ لأنه يجلب النحس عندهم .

فما راعنى إلا صاحبى الدكتور وقد علت نبرته فى الدفاع عن شركة الطيران ، وأن هذا ليس خرافة ، وإنما من باب (الظرافة) و(الفكاهة) و(إمتاع الراكب) إلى آخر ما قال . وهنا أخذت الأمر مأخذ الجد وقلت له :

إن كل أطفال الغرب باتوا ليلة رأس السنة وهم ينتظرون الهدايا التى سيأتى بها لهم القديس بابا نويل ، ويضعها تحت شجرة عيد الميلاد ، استجابة للرسائل التى أرسلوها إليه من قبل ، والأدعية التى وجهوها إليه.

فإذا بصاحبى يدافع عن هذه الخرافة ، ويجعلها فكاهة ، ومتعة ، وبهجة وسعادة ، إلى آخر ما قال . فأيقنت أن كل ما يفعله الغرب هو الصواب بعينه ، وأن غسل الوجدان قد يصل فعلا بالإنسان « أن يرى حسنا ما ليس بالحسن » .

أو أن هذا هو حال الدنيا :

« إذا أقبلت على أحدٍ أعطته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه » .

وهناك نماذج لا تعد ولا تحصى ، لا تغيب عن المتأمل فى سلوك هذا الفصيل من بنى قومنا .

* وإذا كنا قد لخصنا أو اختصرنا مظاهر التبعية الثقافية ، فى هذه الاتجاهات الثلاثة ،فلا يمنع ذلك من أن نومئ إيماءة موجزة إلى مظاهر أخرى ، مع أن بعضها قد يكون من جزئيات هذه الجوامع الثلاث ، فمن ذلك :

- الجرأة على الدين ومحاولة نفيه من الحياة .
- الفنون الغربية المنقولة نقلا بكل صـورها ومضامينها حتى مسرح العبث الذى لا يفهمه حتى كاتبه .
- الرياضة التى خرجت عـن معناها ، وصارت صناعـة ، وتجارة ، حتى وصل (سعر اللاعب) إلى أرقام فلكيـة ، وبلغ الاهتمام بها أن تعقد جلسة فى برلمان دولة عربية كبرى لـدراسة أسباب هزيمة الفريق القومى للكـرة ، مع أن أمريكا هـزمت من ألمانيـا الشرقيـة التى كانت تـترنح للانهيار وتفككت بعد ذلك بقليل .
- الترفيه ووسائل الترفيه .
- فن العمـارة التى هى أم الـفنون ، حتـى صرنا نقـيم منشـآت فى بلاد الشمس المحرقة بـالزجاج الساطع فتتحول فى الـداخل إلى فرن ونعود فنطحن الهواء ونبرده ، هذا فضلا عن عدم ملاءمتها لقيمنا وثقافتنا .
- الزى ، وذلك أمر يعرف العلماء المختصون أثره فى بناء شخصية الأمم.
- الاستهانة باللغة العربية ، يقابـل ذلك الاهتمام باللغة الأجنبية ، والدقة فى أدائها وإتقان نطق الحروف ومخارجها .

ويكفى هذا الآن للتدليل على ما نحاوله من بيان مظاهر التبعية (١).

---

(١) للأستاذ فـهمى هويدى كتابات جـيدة حول مظاهر هذه الـتبعية ، وبخاصة مـا يدخل فى مسخ الوجدان ، اقرأ فصل التغريب أو الهلاك ، وفصل فى زمن الرق الثانى فى كتابه : القرآن والسلطان ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

ـ ٥ ـ

هل إلى نجاة من سبيل ؟

نحن نجتاز موقفا تعثر الآراء فيه وعثرة الرأى تردى

شاعر النيل حافظ إبراهيم

إما أن نكون أو لا نكون :

واقعنا لا يحتاج إلى بيان ، فنحن عند من له أدنى بصيرة نسير فى خط الانحدار ، منذ نحو قرنين من الزمان ، وكل ما كان يلتمع لنا أحيانا، ونرتاح له ، ونسكن إليه ، لم يكن إلا سرابا ، ولا تجد اليوم أعمى ولا بصيرا إلا وهو شاعر بالخطر الذى يتهدد الأمة ، لا فى أرضها، أو حاصلاتها ، أو اقتصادها ، وإنما يتهدد كينونتها وبقاءها .

إننا ابتعدنا تماما ، وكل يوم نزداد ابتعادا عن تحقيق أهدافنا الكبرى فى الوحدة ، وفى التحرر من الاستعمار ، ففى الوحدة أصبحت الإقليمية والحرص عليها من الحدة لدرجة أنها ولدت صراعا مدمرا أحيانا، وتنافسا عقيما أحيانا ، ولقد عبر عن ذلك المفكر مالك بن نبى قبل نحو أربعين سنة ، حين قال :

« ويمكن القول ـ إذا ما طرحنا جانبا بعض المظاهر ـ : إن العالم الإسلامى كان قبل أربعين سنة أقرب إلى الحل الرشيد لمشكلته وهو

---

(١)مالك بن نبى: إنتاج المستشرقين وأثره ـ مجلة الفكر العربى ـ ص١٣٤ ـ مرجع سابق .

مستعمر ؛ لأن وحدته الروحية أو الأيديولوجية كانت أمتن منها اليوم، فهو الآن وهو مستقل ، كأنما يبتعد عن هدفه؛ لأن وحدته هذه قد تصدعت من عملية التقسيم التى أجريت عليه منذ أربعين سنة » [١] .

وفى مجال التحرر من الاستعمار ، فقد أخرجناه ، أو خرج ، ولكنه عاد إلينا أو أعيد ، لا بجيوشه وعساكره وسلاحه ، عاد لا ليحتل الأرض» والقواعد ، وإنما عاد ليحتل نفوسنا وقلوبنا ، ويسرق ألسنتنا ، على حد قول أحد مفكرى الجزائر : « إن المحتل الحقيقى ليس (بوجو) [١] وإنما هو موليير الملتصق بقلوبنا » ، وكما عبر الشاعر الجزائرى أيضا مالك حداد بصرخته الشعرية :

لا تلمنى يا أخى إذ لم يطربك غنائى
أنا لا أغنى لقد سرقوا لسانى فأنا أصرخ [٢]

إنها مسؤوليتكم أنتم :

مسؤولية المفكرين ، مسؤولية قادة الثقافة ، إن الأمم لا تقوم بالمصانع ولا بالمناجم ، ولا بالمزارع ، ولا بالجيوش والترسانات الحربية ، والأسلحة الذرية . . . ها هو الاتحاد السوفيتى عبرة ماثلة للعيان ، عاد أبناؤه بسفينتهم الفضائية فوجدوا الدولة قد تمزقت ، والأرض قد تبدلت .

الأمم لا تقوم إلا بالرجال ، ليس بصورة اللحم والدم ، وإنما بالبناء الثقافى والفكرى ، فهل آن الأوان لأن نضع أقدامنا على الطريق ،

---

(١) قائد جيش الاستعمار فى الجزائر وقتذاك .

(٢) عن الدكتورة بنت الشاطئ ــ شاهدة عصر ــ الأهرام ــ ١١/ ٢/ ١٩٩٣ م .

فأساس مسؤولية المفكر منح الوعى الـذاتى الاجتماعى والقومى والإنسانى لقومه » [1] .

عبرة الواقع :

منذ ما سمى لنا بعصر النهضة ، ونحن نضرب فى تيه الفكر الغربى، أو بالتحديد نجر إليه جرا ، يجرنا إليه بـعض بنى قومنا حسنى النية ، ممن تصوروا أن الأفكار والثقافات يمكن أن تـستعار ، وأن النموذج الغربى هو الأوحد ودونه السـقوط ، وهذا هو الواقع ، وهـذه هى النتيجـة بعد كل هذه المعـاناة ، يشهد بـها أحد شهود الـعصر الكـبار الدكتور زكـى نجيب محمـود ، حينما صـور هذا الفكر الـوافد بأنه (بقـعة زيت على مـحيط هادئ) [2] فى عدم قدرته الامتزاج بالمجتمـع ، وعدم تقبل المجتمع له ، كما كرر ذلك فى أكثـر من مناسبة ، منها محاضرتـه فى نادى الجسرة فى ينايـر سنة ١٩٨٨ م التـى أنكر فيـها صراحة أن نـكون فى نهـضة ، وأما الدكتـور فؤاد زكريا ، فـقد صور المشروع الـتغريبـى تصويرا لا يـقل فى طرافته عن التـصوير : (بقعة الزيت على سطح المحـيط الهادئ) ، فقد فسر سبب خسـارة العلمانية فى مواجهة المشـروع الإسلامى بقوله : « إن المواجهة هنا أشبه بـتلك المعارك التى كنا نألفها جميـعا فى المراحل المبكرة من أعمارنا ، حين يقف أحد الطفلين على عـتبة البيت الكبير الذى يسكنه إخوته وأبواه وأجداده وأعمـامه ويواجه طفلا غريبا عن الحى ، فـيستطيع بصيحة واحـدة أن يستنفر عشيرتـه كلها لنصرته ، علـى حين يقف الآخر

---

(١) علـى شريعتـى : العودة إلـى الذات : ص ٣٠٦ ـ الزهـراء لـلإعـلام ـ القـاهـرة ـ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

(٢) هذا هو عنوان المقال الذى عالج فيه انفصال هذا الفكر عن المجتمع ـ الأهرام .

مترددا فى استخدام ما يملك من قدرات ؛ لأن الأرض التى تدور حولها المعركة ليست أرضه » .

فالشهادة ـ كما علق الكاتب جمال سلطان ـ شديدة المرارة ، بقدر ما هى شديدة الوضوح ، لقد اكتشف التنويريون بعد رحلة القرن ونصف القرن أنهم ظلوا يمثلون الخارجين على الجماعة ، وأن الأرض ليست أرضهم ، أو بمعنى آخر أنهم خارج نسيج الأمة وتكوينها النفسى والعقلى والدينى » [1] .

وتذكروا من تركيا الفشل :

تركيا دولة أوربية الموقع ، أوربية الهوى ، أوربية الاختيار ، منذ أتاتورك وهى تسير بأسرع الخطى فى طريق (الأوربة) لبست البرنيطة وكتبت بالأبجدية اللاتينية ، وحرمت الأذان باللغة العربية ، وقطعت ما بين الدين والدولة تماما ، بل وصلت فى هذا إلى أبعد من الغرب : تنكرت لكل ما هو (دين) وضيقت عليه ، بل جرمته ، حين قدمت بعض المسؤولين إلى المحاكمة بتهمة بدء الخطب بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فهل هناك تغريب أبلغ من هذا ، أو تحديث أو تنوير، سمه ما شئت ؟!

كل ذلك لم ينفع تركيا ، فهاهى بذلت ماء وجهها ، وسفحت دمعها على أعتاب السوق الأوربية ، ولم يؤذن لها بالدخول ، بل صفعها المستشار الألمانى (هلمت كول) حين قال :

---

(١) جمال سلطان ـ خوف التنويريين من البديل الإسلامى ـ مقال بجريدة الحياة ـ ١٩٩٢/٩/٢٤ م ـ جريدة عربية يومية تصدر فى لندن .

« إن تركيا ليست دولة أوربية . إن تركيا لها حضارة غير حضارة أوربا. إن حضارة تركيا إسلامية ، وحضارتنا يهودية مسيحية » أ . هـ بنصه .

وعلى حد تعبير المرحوم الدكتور محمد إبراهيم كاظم : « إن غير الغربى لا يستطيع لمجرد التمنى أن يصبح جزءا من الحضارة الغربية ، حتى على فرض أن الحضارة الغربية حضارة جديرة بالاتباع ، فإذا أضفت إلى ذلك أنها ليست بالضرورة حضارة جديرة بالاتباع » [١] .

وهل يقبلوننا ؟

إن الغرب فى أصل ثقافته لا يعترف بغير (ذاته) ، الرجل الأبيض من البشر ، أما الآخرون ، فليسوا ولن يكونوا أبدا بشرا على مستوى الرجل الأبيض ، مهما حاولوا ، ومهما تشبهوا به ، مهما تراطنوا بلغته ، وأعلنوا عشقهم للمسرح بكل مدارسه ، واستمعوا للسيمفونيات الخالدة ، والكونشرتو الرابع والخامس ، ودندنوا بأشعارهم من هوميروس حتى إليوت ، وتحدثوا عن الباليه ، والأوبرات ، ولبسوا القبعة ، ودخنوا البايب ، مهما فعلنا فالغرب لن يقبلنا ، وشهادات فلاسفتهم ، ومفكريهم صريحة ناصعة ، قارعة ، قامعة ، لكن بعضاً منا لا يريد أن يصدق ، ما بين عينيه ، وما يلمسه بيديه ، لقد قال سارتر : « يوجد فقط نصف مليار من البشر ، ومليارات ونصف من المحليين » ، وبتعبير الاستعمار : الفرق بين الإنسان والمحلى هو الفرق بين الغربى والشرقى [٢] .

---

(١) د . محمد إبراهيم كاظم ــ الجامعة بين النظرية والتطبيق ــ بحث بحولية كلية الإنسانيات : ص ١٦ ــ العدد العاشر ــ جامعة قطر ــ ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م .

(٢) على شريعتى : العودة إلى الذات : ص ٤٨ وما بعدها ــ مرجع سابق .

وعن نفسية الغرب وسيكولوجيته ، وأنه يرغب فى عالم خال من البشر ، راجع مالك بن نبى ، فى كتبه (فى مهب المعركة ص ١٦١ ، وتأملات ص ٤٢ ، ودور المسلم فى الثلث الأخير من القرن العشرين) .

وما أظن هذه الفلسفة الغربية بالنسبة للآخرين أصبحت فى حاجة إلى استشهاد لها واستدلال عليها .

أما ما يموهون به علينا من الإخاء والإنسانية ، وعالمية الثقافة ، وعالمية الفكر ، وعالمية الفن ، وحوار الحضارات ، فما هو إلا نوع من التدجين والترويض ، فما أجملها قرود السيرك ، وهى تلبس الإسموكن ، وتدخن البايب ، وتعزف البيانو ، وتأكل بالشوكة والسكين .

هذا التدجين هو الذى حاوله نابليون (بتغيير عوائد البلاد) ، ثم تولى إكمال المشروع (مسيو جومار) المشرف على البعثات المصرية فى باريس ، ثم عبر عن بلوغه غايته العلامة (جاك بيرك) حين نصح فرنسا قائلا : « إذا أردتم أن تبقوا فى الجزائر ، فاخرجوا منها » .

وقد كان !!

وإذا حاول البعض أن يصرف هذه الشهادات عن وجهها ، ويعتبرها مجرد كلمات من أفراد مهما كانت منزلتهم ، فهى خطرات ووساوس لا وجود لها فى الواقع ، إذا حاول البعض ذاك فما أظن الواقع يكذب . فقد نشرت الصحف بالأمس القريب نص مذكرة سرية للبنك الدولى يقترح أن يتولى البنك الدولى تشجيع تصدير الصناعات القذرة من الدول الصناعية المتقدمة إلى دول العالم الثالث ، والذى أعد المذكرة هو (لورنس

سمرز) كبير خبراء الاقتصاديين فى البنك الدولى [1] .

وأما تصدير النفايات النووية والسامة إلى بلادنا ، فأظن أمرها صار مكشوفا معروفا .

وأعتقد أن هجمة ما يسمونه باليمين ضد الأجانب (الذين هم نحن) هو الوجه الحقيقى القبيح للغرب ، بعد أن انتهت فترة الحاجة إلى الأيدى العاملة الرخيصة التى كانوا فى حاجة إليها لإعادة البناء بعد الحرب الكونية الثانية ، فإذا انقضت الحاجة اكتشف شيراك « أن الأجانب رائحتهم كريهة تفسد هواء فرنسا » .

كيف الطريق إلى ثقافتنا ؟ [2]

ثقافة خاصة :

نعم ثقافة خاصة بنا نحن ، لا سلطان لثقافة الغرب عليها ، وكما أشرنا فيما سلف ، هذه الثقافة كامنة موجودة فى أعماق الأمة ، إلا أنها محجوبة خلف ستائر وأقنعة الثقافة الرسمية .

ونحن لسنا بدعاً فى ذلك ، فالدول الواعية تحمى ثقافتها ، ولا تسمح باختراقها ، ولعل فى الاستشهاد بما تحاوله أوربا من الوقوف فى وجه الثقافة الأمريكية ، ما يجعل الذين يسارعون إلى التنابذ (بالانغلاق) و(الجمود) و(التحجر) يفكرون كثيرا فيما نقول .

لقد قال الرئيس الفرنسى ميتران : « إن السوق الأوربية قد أقمناها

---

(١) جريدة الأهرام ـ القاهرية ـ الصفحة الأولى ـ ٨/ ٢/ ١٩٩٢ م .

(٢) نظرت فى هذا العنوان إلى رسالة أستاذنا الجليل ، الأستاذ محمود محمد شاكر .

من أجل حماية أوربا من سموم الثقافة الأمريكية ، ومن خطر الاختراعات اليابانية .

وكما أن هناك هواء ملوثا ، وماء ملوثا ، فالجو الأوربى ملوث بالثقافة الأمريكية ، بالتلفزيون الأمريكى .

ولابد من الوقوف والمواجهة والصمود . . . يجب أن ننقذ الإنسان الأوربى من الانتحار الثقافى والعلمى » [(١)] .

وفى خبر أذاعه راديو صوت أمريكا فى سنة ١٩٩٠م ، أن الرئيس (ميتران) انزعج انزعاجا شديدا ، عندما علم ذات يوم أن نسبة البرامج الأمريكية التى تبث عبر التلفزيون الفرنسى تمثل (٣ ــ ١) من البرامج الفرنسية، الأمر الذى دعا الرئيس الفرنسى إلى المسارعة باعتماد مبلغ يزيد على ثلثمائة مليون دولار أمريكى للعمل على عكس هذه النسبة لصالح البرامج الفرنسية خلال خمس سنوات [(٢)] .

ونشرت الأهرام فى ٢٥/ ٤/ ١٩٩٢ م تحقيقا من باريس تحت عناوين منها : (الفرنسيون يشكون من غزو أمريكى) ، (أمريكا قادمة فى ثياب ميكى ماوس) ، (أول مواجهة ثقافية بعد انتهاء الحرب الباردة) ، وكان ذلك بمناسبة افتتاح مدينة ملاهى على الطراز الأمريكى .

هذا مع أن الثقافتين الأمريكية والفرنسية من أسرة واحدة .

---

(١) جريدة الأهرام ــ القاهرة ــ ٣٠/ ٩/ ١٩٨٩ م ــ عمود (مواقف) .

(٢) د. عبد السلام الفارسى ــ الثقافة بين التأثير والتأثر ــ مقال بجريدة الأهرام فى ١٠/ ١١/ ١٩٩٢ م .

خصوصية ولكن :

نعم لكن !!

فى نحو ألف صفحة (بالبنط الصغير جدا) صدر كتاب (خطة لغزو العالم الإسلامى) ، وهو عبارة عن بحوث ومناقشات مؤتمر (حكماء كلورادو) ، ذلك المؤتمر الذى انعقد فى سنة ١٩٧٨م ــ بعد الإعداد الطويل الجاد المضنى كما هو مبين فى مقدمة حصاد المؤتمر ــ انعقد هذا المؤتمر تحت عنوان :

تنصير العالم سنة ٢٠٠٠ م . والذى يهمنا هو ما يختص بالبحوث التى عالجت ثقافة العالم الإسلامى ، ووقوفها فى وجه التنصير . وخلاصة ما انتهى إليه القوم الواعون جدا فى تخطيطهم هو :

« إن فشل التنصير فيما مضى يعود إلى الربط بين الثقافة الغربية والتنصير ، فقد تبين صعوبة اقتلاع المسلم من ثقافته ، وإدخاله فى الثقافة الغربية ، مهما غلفت باسم العالمية والإنسانية ؛ ولذلك تقوم الاستراتيجية الجديدة على فك الارتباط بين الثقافة الغربية والتنصير ، وضرورة الاعتراف بخصوصية الثقافة المجتمعية ، ونسبيتها ، ولكن فى الوقت نفسه ضرورة فك الارتباط بين الثقافات المحلية والإسلام » [1] .

ترى هل ما يجرى الآن من تأصيل وتكريس الثقافات الإقليمية فى عالمنا الإسلامى ، هو أثر من هذه الخطة ؟ الفرعونية والبابلية والآشورية والفينيقية . . . و . . . و . . . والمباهاة ، والمفاخرة الجاهلية التى عادت

---

(١) خطة لغزو العالم الإسلامى ــ ص ٩ ــ ١٥ ، ٧٥ ــ ٨٥ .

الآن ، حتى صارت الإقليمية إلى درجة من الحساسية إن لم تتداركها المؤسسات الثقافية من الآن ، فستكون العواقب وخيمة . نريدها خصوصية،ولكن إسلامية ، فالإسلام وحده هو عصام هذه الأمة ، التى لم تعرف لنفسها يوما حرا كريما إلا فى رحابه .

عناصر ووسائل :

فى إيجاز ـ مضطرون إليه ـ نعرض لعناصر ثقافتنا ، ووسائل بنائها، والمحافظة عليها فنقول : علينا أولا أن ننفك من جبل المغناطيس الذى يجذبنا إليه جذبا ، أعنى بذلك الانعتاق من أسر الثقافة الغربية ، فقد نقلنا من الغرب ما لا ينقل ، وتركنا ما كان يجب أن ينقل ، تركنا ما هو ميراث إنسانى عام ، من الطبيعيات والرياضيات وتطبيقاتها ونقلنا ما هو ذاتى خاص ، من فنون وآداب ، وعادات ، وتقاليد ، ونظام حياة ، وأخطر من ذلك الفلسفات التى تحدد علاقة الإنسان بالكون ، وماوراء الطبيعة ، وكل ذلك ، له جذوره الضاربة بعمق فى تربته التى نشأ فيها فكيف ينقل إلينا؟!

وعلينا بعد ذلك أن نكتشف أنفسنا ، ونعرف ذواتنا ، ونستخرج طاقات أمتنا ونحركها من مكانها .

وأقول مع مالك بن نبى :

« وكل ما نتمناه هو أن تقوم فى بلادنا رابطة من المثقفين لكشف هجمات الغرب على الجبهة الفكرية ، حتى لا تبقى الأفكار معرضة لتلك الهجمات دون نجدة ولا مدد » .

ولاشك أن من أهم عناصر ثقافتنا :

١ ـ الدين .

٢ ـ اللغة العربية ، فلغة كل أمة هى ذاتيتها ، وإضاعة اللغة إضاعة للذات ، على حد تعبير فيلسوف الوطنية عبد الله النديم .

وكما قال العقاد : « إن الحملة على اللغة فى الأقطار الأخرى، إنما هى حملة على لسانها ، أو على أدبها ، وثمرات تفكيرها على أبعد احتمال .

ولكن الحملة على لغتنا نحن ، هى حملة على كل شىء يعنينا، على كل تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير فى ضربة واحدة ؛ لأن زوال اللغة فى أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها . ولكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربى أو المسلم قواما يميزه عن سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الأمم ، فلا تبقى له باقية فى بيان ، ولا عرف ، ولا معرفة ولا إيمان » .

٣ ـ التاريخ الإسلامى .

٤ ـ التراث (بكل مكوناته من علوم الدين ، والرياضيات والطبيعيات ، والآداب) .

(عند الأمم الواعية ، مناهج خاصة بتاريخ العلوم وتطورها ، لابد لدارس العلوم من الإحاطة بها) .

٥ ـ دراسة واقع العالم الإسلامى بكل إمكاناته ومشكلاته ، وكفى ما أصاب مثقفينا من خزى عندما تفكك الاتحاد السوفيتى ، وفوجئوا

بجمهوريات يسكنها عشرات الملايين من المسلمين ، ولا يعرفون مجرد أسمائها . على حين يعرفون الـولايات الأمريكيـة واحـدة واحـدة ، بـل ما تشتهر به هوليود ، وشيكاغو ، وتكساس .

ومن المـفارقات البـشعة أنـه عندما أعـلنت نـتيجـة الاستفتـاء (فى جمهورية البـوسنة) وحصلت على استقلالهـا ، كتب أحد محررى الصحف العربـية يسخر من هذه الجمهوريات (المـينى) و(الميكرو) ثم استطرف قائلا : يـعنى حينما يسأل واحد من هؤلاء عـن جنسيته يقول : (بوسـنى) تورية سخيـفة طبعا ، لكـن ما ذنبه مع التـجهيل الذى فرض عليه.

٦ ــ دراسة واقع العالم الأسيوى والإفريقى .

٧ ــ دراسة العالم الغربى ، دراسة واعية ، لا على مستوى نجوم هوليود، وليالـى باريس ، وكلبـة بوش ، وقطة كليـنتون ، وديانا وتـشارلز، وسـارة وأندرو . . ولـكـن علـى مـسـتـوى فـهـم ثقـافـة القـوم وتفكيـرهم؛لكى نعرف كـيف نفسر تصـرفاتهم ، وماوراء خطـطهم وقراراتهم ، (يعنى كما يفعلون بنا الآن) .

٨ ــ صياغة منـاهج تعليمنا من الحـضانة إلى الجامعة ، صياغـة نابعة من قلب ثقافتنا وعمادها (الدين) .

٩ ــ إعادة القرآن الكريم لمكانته فى ثقافتنا وتعليمنا ، حفظا وفهما.

١٠ــ إعادة المسجد لمكانه ومـكانته ، بيتا للعبادة ، وموئلا لتـعليم العامة وتثقيفهم ، وجامعة تربط بـين أهله برباط الحب والإخاء حتى يكون المجتمع كالبنيان المرصوص .

المباشر لكل محطات العالم وقنواته ، لابد من حماية داخلية ذاتية ، بتطهير النفوس وتزكية الأخلاق ، ولا سلاح فى ذلك مثل سلاح الدين والتقوى ، ومعرفة الحلال والحرام .

١٢ ـ من المهم جدا العودة إلى نظام الحياة اليومى ، الذى يرتبط بمواقيت الصلاة ، بحيث يبدأ العمل عقب صلاة الفجر مباشرة ، وتنتهى الفترة الأولى مع أذان الظهر ، وتبدأ الفترة الثانية عقب صلاة العصر . ففى هذا من توفير للطاقة ما فيه ، ثم فيه مع ذلك من معانى الارتباط بالمسجد ، وتيسير أداء الصلوات الخمس فى جماعة ، وأثر ذلك فى العلاقات الاجتماعية وتماسكها ، ثم فى إحياء معانى التقوى والهدى والاستقامة فى النفوس .

وأخيرا

ليست التبعية هى الخطر

إن الخطـر الأكبر الآن لـيس من الـتبعيـة الثقـافية ، أو مـن الثقـافة الغربية، بل الخطر الأكبر فى ثقافة التجزئة ، فى الثقافة الإقليمية الضيقة، التى بدأت تُطل برأسها فى وطننا العربى ، فى ثقافة التراب والأحجار التى بدأت تتحدث عن فرعونية وبابلية ، وآشورية ، وفينيقية ، وسومرية . . . إلخ ، وتـصدع رؤوسـنا بـحورس ، وأبـى الهـول ، وأطلال جـرش ، وفلادلفيا ، وحجارة بابل ، وأعمـدة بعلبك ، وآثار . . . إلخ . هذا هو الخطر الأكبر فعلا وحقا .

وسر هذا الخطر الأكبر أنه أسرع إلـى النفوس ، وأقرب إلى العامة ، وقد ذر قرنه من الآن .

إن الجماهير التى أدارت ظهرها مثلاً لفكر لطفى السيد التغريبى حينما دعاها إلـى (العقلانـية) ، وملاينـة المحتلين والانـصراف إلى (البـناء) بمعاونة الإنجليز والتعلم منهم . . .

هذه الجـماهيـر يشـجيهـا ويفتـنها أن تحـدثها عـن (عبـقريتـها) ، و(إنجازات) أجدادها ، (وعظمة) آبائها .

وبالطبع لا حـرج إطلاقا فى الاعتزاز بالوطن ، فـذلك أمر فطرى ، وديننـا دين الفطرة ؛ ولـذا قرأنا فى سيرتـه ﷺ ، قوله يخاطـب مكة : «والله ، إنك لأحب بلاد الله إلىّ ، . . . ولـولا قومك أخرجونى منك ما خرجت » ، لا حرج فى حب الوطن والتغنى به ، لكن الذى نحاذره ،

ونخشاه أشد الخشية ، هو هذه الكتابات غير المسؤولة ، بل المغرضة ، التى جعلت من حب الوطن والاعتزاز به ، تهوينا وتحقيرا لشأن الآخر ، وجعلت تغرس مشاعر الاستعلاء ، والتنفخ على الآخرين ، وازدرائهم ، (مجرد مثال : حديث البعض ، عن حضارة سبعة آلاف عام فى مقابلة البداوة والصحراء والماعز) . إن هذا هو اللعب بالنار التى ستعصف بالجميع ، ولا تبقى ولا تذر . وإنى لأعجب هل بدأت خطة حكماء (كلورادو) التى وضعت فى سنة ١٩٧٨ م . تؤتى ثمارها سريعا ، هكذا؟!

لقد بنوا خطتهم الجديدة على « ضرورة الاعتراف بالخصوصية الثقافية المجتمعية ونسبيتها ، ولكن فى الوقت نفسه يجب فك الارتباط بين هذه الثقافات المحلية والإسلام » .

هل ما يجرى الآن هو بدء التطبيق العملى لهذه الخطة الخبيثة ؟

وأقول لبنى وطنى : تذكروا أن مصطفى كامل شهيد الوطنية الصادقة، والذى كان ينادى بتحرير مصر من الاستعمار فى ظل الخلافة العثمانية ، والتبعية للباب العالى ، هو نفسه الذى كان يباهى بمصريته ، وهو صاحب القول المأثور :

« لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا » .

وتذكروا أن فيلسوف الوطنية ، وأخلص خلصائها : عبد الله النديم، كان يقول :

« إن الذين يقولون : مصر للمصريين ، إنما حنكتهم قوابلهم باسم أوربا » .

وإن أخطر ما فى هذه الثقافة التجزيئية أنه يصعب جدا علاج آثارها ، فقد يحتاج إلى أجيال ، ذلك أنها تشكل وجدان العامة ، وتوجه عواطفهم ، وتملك مشاعرهم ؛ مما يجعل الحساسية بين الجماهير ، بين الشعوب ، وليست قاصرة على الصفوة والنخبة ، أو على الأنظمة كما كان يحدث من قبل .

والله وحده المستعان على كل بلية .

المراجع

❊ أحمد هيكل ــ الأستاذ الدكتور ـــ عميد دار العلوم السابق ووزير الثقافة السابق بمصر :

١ ــ نحو حضارة عربية معاصرة ــ محاضرة بنادى الجسرة الثقافى ــ نشرت ضمن (قضايا ثقافية رقم ٢ ص ١٥٢ ــ نادى الجسرة الثقافى ــ الدوحة ــ ١٩٨٨ م) .

❊ أ . ل . شاتليه :

٢ ــ الغارة على العالم الإسلامى ــ ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد إليافى ــ مكتبة أسامة بن زيد ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

❊ إمام الحرمين الجوينى ، عبد الملك بن عبد الله :

٣ ــ الكافية فى الجدل ــ تحقيق الدكتورة فوقية حسين ــ دار إحياء الكتب العربية ــ (عيسى البابى الحلبى) ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .

٤ ــ البرهان فى أصول الفقه ــ تحقيق الدكتور عبد العظيم محمود الديب ــ دار الوفاء للطباعة والنشر ــ مصر ــ المنصورة ــ طبعة ثالثة ــ ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩٢ م .

❊ برنارد لويس :

٥ ــ الغرب والشرق الأوسط ـــ عرض موسى حمود ــ مجلة الفكر العربى ــ عدد خاص عن الاستشراق ــ رقم ٣٢ ــ أبريل سنة ١٩٨٣ م عن (معهد الإنماء العربى ــ بيروت) .

* **الدكتورة بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) :**

٦ ــ شاهدة عصر ــ سلسلة مقالات بجريدة الأهرام ــ المقال بتاريخ ١١ / ٢ / ١٩٩٣ م .

* **بيترجران :**

٧ ــ الجذور الإسلامية للرأسمالية ــ دار الفكر للدراسات والنشر ــ القاهرة ــ ١٩٩٣م .

* **توفيق الحكيم :**

٨ ــ مقال : من برجنا العاجى ــ مجلة الرسالة ــ عدد رقم ٩٢١ فى ٣٠/٦/١٩٣١م .

* **جلال كشك :**

٩ ــ الماركسية والغزو الفكرى ــ مكتبة الأمل ــ الكويت ــ طبعة ثالثة ــ ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٩ م .

١٠ ــ ودخلت الخيل الأزهر ــ دار الزهراء للإعلام ــ القاهرة ــ الطبعة الثالثة ــ ١٤١٠ هـ ــ ١٩٩٠ م .

* **جمال سلطان :**

١١ ــ خوف التنويريين من البديل الإسلامى ــ مقال بجريدة الحياة ــ ٢٤/٩/١٩٩٢ م .

* **دكتور حسن حنفى :**

١٢ ــ مقدمة فى علم الاستغراب عن جريدة الشرق فى ٣/٦/١٩٩٢م .

* ابن حزم الأندلسى :
١٣ ــ الإحكام فــى أصـول الأحـكام ــ مكـتبـة عـاطف ــ القـاهرة ــ ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨م .
* دكتور رشاد رشدى :
١٤ ــ أمجـاد الحاكـم ومصيـر الشعـوب ــ مـقال بجـريدة الأهـرام فى ١٧/ ٢/ ١٨٨٣م .
* زكى نجيب محمود ــ الأستاذ الدكتور :
١٥ ــ دورنا فى ثقافة الـعصر ــ محاضرة بنادى الجسـرة ــ نشرت ضمن (قضايا ثقافية رقم ٢ ص ١٤) نادى الجسـرة الثقافى والاجتماعى ــ الدوحة ــ ١٩٨٨ م .
١٦ ــ مقال بعنوان : (فرار إلى مدينة الأحلام) ــ ٢١/ ١٠/ ١٩٨٩م .
* سامى خشبة :
١٧ ــ بدايات تحرر المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر ــ مقال بجريدة الأهرام ــ ١٤/ ١٠/ ١٩٨٣م .
* طارق البشرى ــ المستشار المؤرخ :
١٨ ــ الحركة السياسية فى مصر ــ القاهرة ــ دار الشروق ــ طبعة ثانية ــ ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م .
* عبد الرحمن الجبرتى :
١٩ ــ عجائب الآثار (مشهور بتاريخ الجبرتى) ــ دار الجيل ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

* دكتور عبد السلام الفارسى :

٢٠ ـ الثقافة بين التأثر ـ مقال بجريدة الأهرام ـ فى ١٠/ ١١/ ١٩٩٢م.

* دكتور عبد الوهاب المسيرى :

٢١ ـ استيراد المصطلحات ـ بحث مقدم إلى ندوة إشكالية التحيز ـ عقدت بالقاهرة فى ٩/ ٢/ ١٩٩٢م برعاية نقابة المهندسين ، والمعهد العالمى للفكر الإسلامى ـ عن جريدة الأهرام فى ٣/ ٣/ ١٩٩٢م مقال بعنوان (انتفاضة ثقافية) للأستاذ فهمى هويدى .

* عدنان زرزور ـ الدكتور :

٢٢ ـ فى الفكر والثقافة الإسلامية (المدخل) ـ المكتب الإسلامى ـ بيروت ـ طبعة رابعة ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

* دكتور على شلش :

٢٣ ـ دليل المجلات الأدبية ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٥م.

* دكتور عمار جمعى الطالبى :

٢٤ ـ مقدمة اصطلاحات الفلاسفة ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر، ١٩٨٣ م .

* عمر فروخ ، ومصطفى الخالدى :

٢٥ ـ التبشير والاستعمار . بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٥٧ م .

* دكتور على شريعتى :

٢٦ ـ العودة إلى الذات ـ الزهراء للإعلام ـ القاهرة ـ ١٤٠٦ هـ ـ

١٩٨٦ م .

* الدكتور فؤاد زكريا :

٢٧ ـــ معـركتـنا والـتفـكيـر اللاعـقلـى ـ مـقال بـجريـدة الأهرام ـــ ١٨/ ١١/ ١٩٧٣م

* فهمى هويدى :

٢٨ ـ تفكيك الأمة ـ مقال بجريدة الأهرام ـ ١٩٩١ م .

٢٩ ـ القــرآن والسلطــان ـ دار الشروق ـــ القاهرة ـ طـبعة ثالـثة ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

* فيليب حتى :

٣٠ ـ تاريخ سوريا ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٧٢ م .

* مؤتمر حكماء كلورادو :

٣١ ـ خطة لغزو الـعالم الإسلامى ـ مركز دراسات العــالم الإسلامى ـ بيروت .

* مؤسسة فرانكلين :

٣٢ ـ الموسوعة الثقافية ـ دار الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ م .

* مالك بن نبى :

٣٣ ـ إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى ـ بحث ـ مجلة الفكر العربـى ـ عدد ٣٢ ـ تصـدر عن معهد الإنمــاء العربى ـ بـيروت ـ أبريل ١٩٨٣ م .

* مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

٣٤ ـ المعجم الفلسفى ـ الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ القاهرة ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م .

٣٥ ـ المعجم الوسيط ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.

* دكتور محمد إبراهيم كاظم :

٣٦ ـ الجامعة بين النظرية والتطبيق ـ بحث ـ حولية كلية الإنسانيات ـ العدد العاشر ـ جامعة قطر ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

* محمد حسنين هيكل :

٣٧ ـ الصحافة والسياسة ـ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ بيروت ـ طبعة ثالثة ـ ١٩٨٤ م .

* دكتور محمد فؤاد شكرى :

٣٨ ـ الصراع بين البرجوازية والإقطاع ـ دار الفكر العربى ـ مصر ـ ١٩٦٨م .

* دكتور محمد محمد حسين :

٣٩ ـ الاتجاهات الوطنية فى الأدب ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

* محمود محمد شاكر ـ الأستاذ الجليل :

٤٠ ـ أباطيل وأسمار ـ مطبعة المدنى ـ القاهرة ـ ١٩٧٢م

٤١ ـ رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ـ دار الهلال ـ سلسلة كتاب الهلال رقم ٤٨٩ ـ القاهرة ـ سبتمبر ـ ١٩٩١ م .

٤٢ ـ المتنبى السفر الأول ـ دار المدنى ـ القاهرة ـ طبعة ثانية ـ ١٩٧٧م.

* **دكتور محمود الطناحى :**

٤٣ ــ الموجز فى مراجع التراجم والبلدان ــــ مكتبة الخانجى ــ القاهرة ــ ١٤٠٦ هـــ ١٩٨٥م .

* **مسعود ضاهر :**

٤٤ ــ الهجرة اللبنانية إلى مصر ــ منشورات الجامعة اللبنانية ــ بيروت ــ ١٩٨٦ م .

* **يوسف القعيد ــ الروائى :**

٤٥ ــ حوار أجرته معه جريدة الشرق القطرية ــــ نشر فى ١٩٩٢/٥/٢١م.

تعقيب أ . د . السيد الحسينى :

من الصعب إثارة تساؤلات بمثل هذا الاتساع والشمول دون الانطلاق من إطار معرفى واضح . ولقد كان الباحث حريصاً على هذا الوضوح الفكرى ، فأعلن منذ البداية تبنيه لمشروع إسلامى يضمن تحقيق النهضة الشاملة . ولاشك أن ذلك قد منح البحث الحالى قدراً ملحوظاً من الاتساق الداخلى والوضوح الفكرى .

ولقد اعتمد الكاتب على طائفة وفيرة من الاقتباسات (الطويلة والقصيرة) ، الأجنبية والعربية ، والمنتقاة بعناية ؛ لكى يبرهن على صدق الأفكار المسبقة التى انطلق منها . وعلى الرغم من أن البحث الحالى يشكل إضافة هامة إلى الكتابات الحديثة المتنامية فى مجال التبعية الثقافية فى الوطن العربى ، إلا أننى أجد نفسى مدفوعاً إلى تسجيل عدد من الملاحظات الأولية حول هذا العمل :

١ ــ حرص الكاتب على طرح عدد من التعريفات لكلمة الثقافة ، بينما لم يحرص على تقديم تعريف لكلمة التبعية ، على الرغم من أنه قد أعلن بوضوح أنه ينوى ذلك . إن تعريف كلمة التبعية فى بحث كالبحث الحالى ليس مجرد استكمال شكلى لإجراء منهجى . إنه مطلب منهجى ونظرى ضرورى . فالتبعية ــ كما نعلم ــ يمكن فهمها فى ضوء مجموعتين من العوامل : عوامل داخلية : تتصل ببنية وتركيب المجتمع التابع ، وعوامل خارجية : تتصل ببنية وتركيب المجتمع المسيطر (أو النظام العالمى) ، ثم طبيعة ونمط العلاقة بين كل من المجتمع التابع والمجتمع المسيطر . كما أن مثل هذه العلاقة تتم من خلال وسائل وأساليب قد تكون المدفع والبندقية فى فترة معينة ،

وقد تكون الـغذاء والتكنولوجـيا والمال فى فترة أخـرى ، وقد تكون المعلومات فى فترة ثالثة .

إن تعـريف التبـعية كان مـن الممكـن أن يزود الباحـث بأدوات تحليلية هامة فى مثل هذا البحث .

٢ ـ سعى الكاتب بكـل ما استطاع جمعه من شواهد واقتـباسات البرهنة على وجود حالة التبعية فى الأقطار الإسلامية (تجدر الإشارة إلى أن البحث لم يـحدد نطاقه المكانى، حـيث يدرس ظاهرة التبعـية بشكل مطلق كما يشـير إلى ذلك عنوانه) . ونحن من جانبـنا نتفق ـ فى معظم الأحـيان ـ على تشـخيص الكاتب لـمشكلة التبـعية ، إلا أن التبعية قد تحـولت فى هذا البحث ـ وبسبب غياب الـنظرة الجدلية ـ إلى ظـاهرة أحادية الاتجـاه تربط طرف مـسيطـر بآخر خاضـع ،ومع تسـليمنـا بدور العـوامل الخارجيـة فى حدوث الـتبعـية فى العـالم الإسلامى وجمود النـظم السياسية، إلا أننا يجب ألا نـغفل العوامل الداخـلية وعلـى رأسها قفـل باب الاجتهـاد . إن العالم الإسـلامى والعالـم العربى يزخران بـجهود ضخمـة تصدت لمطلب الاسـتقلال الفـكرى ، ومواجهـة الهيـمنة الفـكرية . ولاشـك أن تحليلاً أولـياً لأعمـال مفكـرين ومنـاضلين مـن أمثـال جمال الـدين الأفغـانى ، والكواكبى ، وعبد القادر الجـزائرى ، وعمر المختار ، والإمام حسن البنـا ، يكفى لتوضـيح صور النضال الـفكرى من أجل فهـم أفضل لواقعنا ، وطرح بدائل مختلفة لمواجهته .

٣ ـ ركز الباحث اهتمامه على الكتابات التـى تبرز صور التبعية الثقافية فى عالمنا الإسلامـى سواء الأجنبـية منهـا أو العربـية ، وحقق فـى هذا

المجال نجاحا ملحوظا ، إلا أن النظرة الشمولية تتطلب ــ فى الوقت نفسه ــ أن يمنح الباحث حيزاً للجهود الفكرية التى شهدتها أقطار آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية منذ حصولها على الاستقلال من أجل تدعيم ثقافاتها الوطنية ، وتطوير أنظمة معرفية وقيمية تمكنها من مواجهة الهيمنة الرأسمالية . وفى هذا السياق فإننى أدعو الكاتب إلى متابعة الجهود فى مجالات عديدة مثل : دور مدرسة التبعية وجهودها فى أقطار العالم الثالث، محاولات الإحياء الحضارى فى أقطار مثل الصين والهند ، الصحوة الإسلامية المعاصرة ، إكساب العلوم الاجتماعية طابعاً وطنياً ، تدعيم اللغات المحلية فى إفريقيا ، نماذج التنمية البديلة المطروحة الآن فى العالم الثالث .

٤ ــ مع تسليمنا بالتبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية لأقطار العالم الثالث (ومن بينهما الأقطار الإسلامية والعربية) من خلال المظاهر والأشكال التى استفاض فى تحليلها الكاتب وعرضها بطريقة ساخرة ، إلا أننى أرى أننا نواجه الآن ظاهرة « العولمة » ، أى تحول كثير من القضايا والمشكلات من نطاقها الإقليمى إلى النطاق العالمى . ويكفى أن أشير فى هذا المجال إلى بعضها : التلوث بأشكاله المختلفة ، التصحر ، تآكل طبقة الأوزون ، الإيدز ، الهندسة الوراثية . ومع تسليمنا بالموقع المتدنى للأقطار النامية داخل النظام العالمى ، إلا أن مثل تلك القضايا والمشكلات الكونية لا تعالج إلا على مستوى عالمى. بل إن التنمية الإقليمية ذاتها بالنسبة لدولة نامية لم تعد ممكنة دون الاندماج بشكل أو بآخر بالنظام الكونى الجديد .

هذا يعنى ببساطة أن التساند الدولى قد أصبح مفهوماً تفسيرياً هاماً إلى جانب مفهوم التبعية .

٥- نحن بحاجة إلى دراسة النماذج التنموية البارزة فى مجتمعات العالم الثالث داخل النظام الاقتصادى العالمى المعاصر . علينا دراسة المجتمعات الصناعية الجديدة فى جنوب شرق آسيا من منظور ثقافى، وعلينا بالتالى تقديم إجابات مباشرة على تساؤلات مثل : هل يتطلب النمو الاقتصادى من تغيرات موازية على القيم والمعتقدات وأساليب السلوك ؟ ما هو مصير الثقافة الوطنية فى ظل التحولات الاقتصادية التى تتطلبها التنمية ؟ ما هو الدور الذى لعبه الدين فى مجال التنمية؟ إن الإجابة على مثل هذه التساؤلات تطرح أمامنا بدائل فكرية لتجاوز حالة التبعية ، مع الأخذ فى الاعتبار الخصوصية التاريخية لأقطار العالم الثالث ومن بينها العالم العربى.

٦ - من الصعب فهم التبعية الثقافية فى عالمنا العربى دون الوعى بعدد من المتغيرات العالمية والقومية نشير إلى بعض منها : الثورة العالمية فى المعلومات وسيطرة نظام الاتصال العالمى بوكالات أنبائه الضخمة ، وأجهزته الإعلامية النفاذة ، سيادة النموذج الرأسمالى ربما عالميا وانتشاره محلياً ، وتأثير ذلك على الثقافة القومية ، انهيار الاتحاد السوفيتى ومستقبل الجمهوريات الإسلامية ، مستقبل الصحوة الإسلامية والدور الذى يمكن أن تلعبه فى تشكيل الوجدان العربى .

٧ - يصعب مواجهة التبعية الثقافية فى عالمنا العربى دون التعرف على الوزن النسبى لكل من العوامل الداخلية والعوامل الخارجية المحدثة أو المسببة لها . إن التبعية هى فى نهاية الأمر محصلة لتفاعل هذين النوعين من العوامل وإذا ما تعرفنا على الوزن النسبى لكل منها ، استطعنا رسم استراتيجية أكثر رشداً لمواجهة التبعية . ففى أقطار

بعينها ، وخلال حقب معينة قد تبدو العوامل الداخلية أكثر أهمية فى مواقف أخرى . فعلى سبيل المثال، نجد أقطاراً ضخمة مثل الهند والصين تلعب فيها العوامل الداخلية دورا بارزا ، بينما نجد أقطارا صغيرة فى إفريقيا تلعب فيها العوامل الخارجية الدور الحاسم . ومن الصعب مواجهة التبعية الثقافية دون التوصل إلى خريطة اجتماعية تحدد القوى القادرة على القيام بدور ريادى ، والمكونات الثقافية والفكرية التى تستعين بها ، والتفاعلات المحلية والعالمية المرتبطة بذلك . إن الانزلاق إلى موقف التبعية أمر يسير ، بينما المحافظة على الاستقلال يحتاج إلى جهد وجهاد متصلين . ومن أسف أن الخبرات التاريخية المتاحة أمامنا تكشف عن كثرة حالات الانزلاق إلى موقف التبعية ، وندرة حالات الاستقلال وذلك بالنسبة لأقطار العالم الثالث عموما .

٨ ـ يجب أن تظل الدعوة إلى قراءة تراثنا العربى والإسلامى مفتوحة على الدوام من قبل مؤسساتنا الأكاديمية والثقافية ، الحكومية والأهلية على السواء . ويجب أن تتسلح هذه القراءة بمداخل منهجية ملائمة قادرة على تقديم رؤى مبدعة لتراثنا الحضارى ، ولا يتحقق ذلك دون حرية أكاديمية واسعة النطاق . إننا نأمل ألا تتحول تلك القراءة إلى مجرد تدريب على قراءة النصوص التى تثبت وتؤكد ريادتنا الثقافية والفكرية فى عصورنا الذهبية ، بل يجب أن تشكل نقطة انطلاق لتكوين مدارس فكرية متفتحة على الإنجازات المنهجية العالمية ، وملتزمة فى الوقت ذاته بالهموم والقضايا الثقافية العربية . وعلى الرغم من أن جهوداً بارزة قد تحققت فى هذا المجال خلال السنوات الأخيرة ، إلا أنها ما تزال بحاجة إلى دفعة قوية . نحن

بحاجة إلى الانفتاح الفكرى المستند إلى ذات متمحورة حول نفسها . لقد ولى عصر الثنائيات : تناقض العلم والدين ، تناقض القومية والإسلام ، تناقض الأصالة والمعاصرة ، وبات من الواضح أن النهضة الثقافية أوسع بكثير من تلك الثنائيات .

٩ ــ لابد من دراسة الأساليب والوسائل التى تكفل المحافظة على الهوية الثقافية لمجتمعاتنا العربية دون انغلاق أو عزلة . ما هو الدور الذى يمكن أن تلعبه المؤسسات الثقافية فى هذا المجال ؟ ما هى العناصر الثقافية الراسخة التى يمكن أن تصمد فى مواجهة الاختراق الثقافى ؟ ما هو مصير الثقافات الشعبية فى ظل عالم سريع التغير ، سريع الاحتواء ؟ كيف يمكن تحويل العناصر الإيجابية فى تراثنا الحضارى والإسلامى إلى ممارسات يومية على مستوى السلوك والتفكير ؟ ما هى وسائل وأساليب تدعيم الوعى بالذات فى مواجهة الغرب ؟ مثل هذه التساؤلات تحتاج إلى إجابات واضحة عند تحليل أبعاد ذاتنا الثقافية .

١٠ ــ فى معرض تحليله لظاهرة التبعية الثقافية ، رفض الكاتب ما أطلق عليه « البدهيات » مثل : أننا كنا نعيش فى ظلام حتى جاءتنا الحملة الفرنسية ، وأن اتصالنا بفرنسا هو الذى علمنا معنى الحرية ، وأن تنحية الدين عن المجتمع سبيل النهضة والانطلاق والتحرر . الواقع أن من الصعب إطلاق كلمة « بدهيات » على مثل تلك الأفكار ، حتى ولو استخدمها الكاتب على سبيل السخرية هى أقرب إلى الأوهام ! إن هذه الأوهام تدخل فى نطاق ما يطلق عليه « نظرية التحديث » التى تذهب إلى ضرورة محاكاة النموذج التنموى العربى.

والواقع أننا لم نعد نجد الآن من يروج لمثل تلك الأفكار حتى داخل العالم العربى ذاته . والسبب بسيط وهو ، أنه ليس هناك نموذج للتنمية يعد تكرارا لنموذج سابق . فالولايات المتحدة لم تحقق تنميتها باستخدام النمط الرأسمالى البريطانى ، ومثل ذلك ينطبق على اليابان وأقطار أخرى كثيرة .

١١ ــ يرفض الكاتب ويتحفظ كثيرا على ترسانة المفاهيم والمصطلحات المستخدمة فى العلوم الاجتماعية والسياسية الغربية . ومنذ البداية فإننى أوافق الكاتب على تحفظه ، وإن كنت لا أوافق على رفضه . فعلى سبيل المثال، نجده يرفض كلمات مثل التجديد ، والاجتهاد ، والواقعية، والحداثة ، والإقطاع ؛ لأنها غربية النشأة والمصدر ، برغم حياديتها الظاهرة . إن أقصى ما نستطيع عمله هو أن نستخدم المصطلحات والمفاهيم بعد التعرف على دلالاتها المعرفية وسياقها التاريخى ، وأن ندرك أن المفاهيم ما هى إلا أدوات لتحليل فهم واقع بعينه حتى ولو كان هذا هو الواقع الأوربى . إن الأبعاد الحضارية للعلم تكتسب وجودها من خلال الفهم الحضارى المقارن للظواهر الإنسانية فى سياقها التاريخى . ومن الطبعى أن يعتمد هذا الفهم الحضارى على ترسانة من المفاهيم والتصورات القادرة على تجاوز الزمان والمكان .

١٢ ــ حرص الكاتب فى نهاية بحثه على حصر أهم عناصر الثقافة المتمثلة فى رأيه فى : الدين ، واللغة العربية ، والتاريخ الإسلامى ، والتراث . ونحن من جانبنا نتفق مع الكاتب فى هذا التحديد . إلا أن الشىء الهام فى هذا المجال هو ضرورة تحديد الوظائف التى تؤديها

تلك العناصر . فاللغة العربية ليست مجرد رمز من رموز التواصل والتعبير، ولكنها تشكل فى الوقت ذاته إطارا للمعرفة ، ووسيلة لاكتشاف الواقع والتعبير عنه ، وعنصرا من عناصر الحركة والتغير ، وأساسا من أسس الإبداع الثقافى ، ومثل هذا يقال عن الدين وعناصر الثقافة الأخرى.

كذلك فلقد ذهب الكاتب إلى أن النهضة الثقافية هى مسؤولية قادة الثقافة ، وتلك قضية لا نختلف حولها من حيث المبدأ . إن من الضرورى التعرف على نمط التكوين الفكرى للمثقفين ، والسياق السياسى الذى يعملون فى ظله ، وعلاقتهم بالجماهير ، وقدرتهم على التفاعل مع التراث ومع الحضارة العالمية فى آن واحد .

لقد قصدت بهذه الملاحظات الأولية إجراء حوار مع الأفكار الهامة التى طرحها الكاتب فى بحثه القيم ، الذى يمثل تشخيصا شاملا للتبعية الثقافية : عواملها ، ووسائلها ، وكيفية مواجهتها . ولا تقلل تلك الملاحظات من الجهد الكبير الذى بذله الكاتب ، والذى أرجو أن يستمر على الدوام من أجل فهم أفضل لواقعنا الثقافى ، والوصول إلى استراتيجية قادرة على تحقيق نهضة حضارية لمجتمعنا العربى .

أشكركم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رد الباحث :

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين . وبعد :

أشكر للأخ الصديق الأستاذ الدكتور سيد الحسينى عنايته الواضحة بهذا التعقيب الذى جاء ــ كما أشار الأخ الدكتور درويش العمادى ــ محاضرة أخرى .

ومن هنا كان علينا أن نلتزم الإيجاز الكامل فى الإشارة إلى ملاحظات المعقب ، وكذلك فى الإجابة عليها ، ولقد صاغ المعقب تعقيبه فى اثنى عشر بندا ، ومقدمة موجزة وهاك الرد :

مقدمة المعقب عبارة عن جمل ضخمة وكلمات فخمة لا أجد لها علاقة مباشرة بالموضوع ، إلا أننى أقف أمام قوله : « اعتمد الكاتب على طائفة وفيرة من الاقتباسات (الطويلة والقصيرة) الأجنبية والعربية ، والمنتقاه بعناية ؛ لكى يبرهن على صدق الأفكار المسبقة التى انطلق منها» .

وإنى لأتساءل : ماذا يعنى المعقب بذلك ؟ إن هذا كلام له ما وراءه، هل يريد أننا وضعنا النتائج أولاً ، ثم بحثنا بعناية حتى انتقينا ما يدل عليها ويشهد لها ؟ أعيذه وحاشاه أن يقصد ذلك ! فهو يعرف قواعد المنهج ، ويعرف كيف تُدرس مثل هذه الظواهر .

وهو لاشك قد قرأ البحث ، وعرف منهجه الذى بنيناه عليه ، وهو بين يدى القارئ ، ليحكم عليه ، ولا حاجة للتطويل بالحديث عن ذلك .

ولذا أعتقد أن هذه العبارات ، جاءت مثل أخواتها فى مقدمة التعقيب ، بدون مدلول .

فى البند الأول: أخذ علينا المعقب أننا لم نقدم تعريفا للتبعية مثلما

قدمنا للثقافة ، وعلى هذا اتهمنا بالقصور (المنهجى) .

والواقع أننا قدمنا تعريفا شافيا للتبعية فى ص ١٩ ، معتمدين على المعجم الفلسفى الذى أصدره مجمع اللغة العربية . ويبدو أن عناية المعقب بتعقيبه المطول أنسته ما قرأه فى البحث .

والبند الثانى : يشير المعقب إلى أننا لم نحدد نطاق البحث المكانى ، مع أن هذا مفهوم أصلا فى عنوان الندوة (الثقافة العربية) ، فالمكان مفهوم محدد بدءا عند كل من أسهم فى الندوة باحثا أو معقبا .

وقد أخذ الباحث علينا هنا أمراً آخر وهو أننا صورنا العلاقة « بسبب غياب النظرة الجدلية إلى ظاهرة أحادية الاتجاه تربط طرفاً مسيطرا بآخر خاضع » ، ثم راح يؤكد خطأنا بذكر مفكرين أصلاء مثل عبد القادر الجزائرى ، وعمر المختار ، وحسن البنا .

ولعل القارئ (والبحث بين يديه) ، يعجب معى من هذا الكلام ، فقد ذكرت فى ص٢٩ ، ٣٠ « أن أمتنا لم تعقم ولن تعقم . . وأنها أنجبت مفكرين أصلاء ممن يستحقون بحق وصف (المفكر) وضربت أمثلة بنحو عشرين . فكيف فات المعقب ذلك ؟! بل نعيت على الذين يقولون بغير هذا ، ووصفتهم (بالعور) و(الحول) الثقافى .

فكيف فات المعقب ذلك مرة ثانية .

فى البند الثالث : أخذ علينا (عدم النظرة الشمولية) التى منعتنا من بحث « الجهود الفكرية التى شهدتها أقطار آسيا وأمريكا اللاتينية . . . » ، وأظن ذلك قد أجيب عنه من قبل ، حيث إننا حددنا البحث بدراسة ظاهرة التبعية فى مجال الثقافة العربية فقط .

فى البند الرابع: سلم المعقب بوجود التبعية الثقافية والاقتصادية

والسياسية ، ثـم قال : « إننا نواجه الآن ظاهرة « العولمة » لقـضايا كثيرة مثل: ثقب الأوزون ، والإيدز ، والهندسة الوراثية . . » وكأنه يشير إلى ضرورة مشاركتنا للعالم فى هذه المشاكل .

ولكنى رغما عنى أجدنى مخالفا لـه مخالفة كاملة ، فالعالـم الفارغ ، الذى فرغ من مشاكـله على الأرض وصعد إلى الفضاء أصـبح يبحث فى حل مشاكل : انقراض وحيد القرن ، والفيل الأبيض ، والدب الأسود، وتجمـد المياه حـول الحيتـان ، وتلوث الـهواء الذى أكـل الأوزون ، هذا العالم الفارغ الذى اكتنزت خزائنه بما استنزفه من ثرواتنا وخامات بلادنا ، هذا العالم الـذى يعيش على ما يصـدره لنا من سلع ومنتـوجات ، يحدد ثمنها كما يشاء ، بل أصبح يصدر إليـنا المال الفائض يستغل فوائده الربوية أبشع استغلال .

هذا العالم له اهتماماته ، بل يمكن أن نقول هواياته ، فما شأننا نحن به ، هـذا العالـم الذى يجـرنا لـقمة الأرض فـى (ريودى جانـيرو) ، ونذهب إلى هناك ندبج الأبحاث حـول ثقب الأوزون والمحميات الحيوانية والنباتية ، بل وأعشاب البحر .

مالنا ولهذا كله ، لقد انشغل إعـلامنا فى مصر طول الصيف الماضى ١٩٩٢م بالحديث عن قـمة الأرض . فأية مفارقة محزنـة ، بل مخزية أن نشارك فى هذه التظـاهرة العالمية بهذا الحماس ، ذاهلين عـما يتهددنا تحت مواطئ أقدامنا ، وفـوق رؤوسنا ، وعن أيماننا وشمائلنـا ، أليس من نكد الدنيا أن نقرأ لبـاحث يدعو لإقامة محمية فى أبو رواش لحـماية العقارب والثعابين ، على حين يتساقط البشر صرعى السموم التى يتجرعونها فى الماء ويأكلونها فى الغذاء ويتنسمونها فى الهواء؟!

كيف نفرد مسـاحة فى صحيفة لثقب الأوزون ، وبـالوعات الصرف

الصحى يتساقط فيها الناس صرعى ، كيف يتحدث هذا العالم الوقور عن حماية حيوان (اللاما) من الانقراض ، وهو يرى قبل أن يدخل إلى التلفزيون ماء النيل يحمل سموم أكثر من ستمائة مصنع تصب فيه ؟ كيف نتحدث عن النباتات النادرة والشعب المرجانية ، والفشل الكلوى أصبح وباء أو كالوباء فى مصر ؟ كيف نتحدث عن (قمة الأرض) ومصانع أدوات المائدة تستخدم (مادة اليوريا) السامة لرخص ثمنها بدلا من الميلامين فتقدم للناس الموت على طبق من البلاستيك ؟!

إن العالم (الفارغ) يريد أن يجرنا معه لمظاهراته ومظاهره الترفية ، فمالنا وماله . إن أى مثقف ينسى قضايا وهموم أمته القاتلة ، وهى تحت قدميه وبين يديه ، ويروح يمرح هنا وهناك بحجة (العولمة) و(العالمية) هو مثقف مزيف ، هو مثقف مدبلج مدجن ، بل هو خائن لأمته ولقومه. وذاك أبشع من التبعية .

فى البند الخامس والسادس : يتمنى المعقب أموراً أتمناها معه ، ولكنه ليس من موضوع بحثنا .

فى البند التاسع : يطمح المعقب إلى مزيد من الدراسات فى جوانب متعددة ،وأعتقد أنه يوافقنى على أن هذا لا علاقة له بالموضوع المحدد للبحث .

فى البند العاشر : ينكر المعقب بعض ما قدمته من مظاهر التبعية ، وأطلقت عليه بدهيات كاذبة مثل (إن اتصالنا بفرنسا هو الذى علمنا معنى الحرية) ،فإن كان يعيش مع (مثقفين) لا يؤمنون بذلك ، فليدلنى عليهم وشكرى وتقديرى له ولهم ، إن كل ما قرأته (للمثقفين الرسميين) يقول بهذه البديهة الكاذبة ، فإن كانت قد نشأت طبقة أصيلة من المثقفين (الرسميين) لا تؤمن بذلك ، فهذا ما نتمناه .

في البند الحادى عشر : يوافق المعقب على تحفظنا فى استعمال منظومة المصطلحات الغربية ، ولكنه لا يوافق على رفضنا لها ، وضرب مثلا بالتجديد والاجتهاد ، والواقعية ، والحداثة ، والإقطاع وقال : « إنه لا يوافق على رفضها لأنها غربية النشأة والمصدر » . ولكن الحقيقة أن هذه ليست كلها غربية المصدر ، بل بعضها أصيل فى تراثنا ، ولكنه يستخدم الآن من منظور غربى وبمفهوم غريب تماما عن مفاهيمنا ، ونكتفى بمثال واحد (الاجتهاد) الذى يحمل مفهوما خاصا ، ودلالة محددة فى تراثنا، وهى تعنى (بذل الجهد والوسع وأقصى الطاقة فى استخراج الحكم من الأدلة الشرعية) . على حين يستخدم هذا المصطلح الآن استخداما معكوسا ، فبدلا من أن يكون الاجتهاد داخل النص ، تعرفا على معطياته، واستنباطا لأحكامه الآمرة الناهية ، يستخدم الاجتهاد الآن بمفهوم غربى غريب عن (الاجتهاد) المعروف فى ثقافتنا الأصيلة ، يستخدم مصطلح (الاجتهاد) الآن تعبيراً عن جهد بشرى مطلق من كل قيد ، لا علاقة له بالنصوص والأدلة الشرعية ، حيث يرى البعض أن الدين تجربة مجتمع ، ونتاج ظروف وبيئة معينة ، فنحن (فعلا) لا نرفض المصطلح لذاته ، وإنما للخلل فى مفهومه ومدلوله أحيانا ، وللظلال والإيحاءات التى يحملها أحيانا أخرى .

وهكذا يحتاج كل مصطلح من المصطلحات التى ضربتها مثلا إلى بيان وشرح طويل لسنا له الآن .

فى البند الثانى عشر : ليس هناك خلاف ، فالمعقب يعلن موافقته على العناصر التى رأيناها عمادا لثقافتنا الأصيلة التى نرجوها .

وأختم بشكرى مجددا للأخ الكريم المعقب سائلا الله لى وله التوفيق والسداد ، ولأمتنا الهدى والرشاد .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقـــم الإيـــداع : ٩٦٢٥/ ١٩٩٦ م

I.S.B.N : 977 - 15 - 0169 - 0

هذا الكتاب

* من ينظر إلى واقع أمتنا المسلمة ـ الثقافى والفكرى ـ يدرك ما آل إليه أمرنا من تبعية ثقافية وفكرية ، تزداد يوما بعد يوم، حتى وصلت إلى عبودية فكرية ، جعلت عقولنا تستنيم لكل ما يلقى إليها ، حتى صارت لدينا مُسَلّمات خادعة وبدهيّات كاذبة ، ترتاح إليها العقول وتُؤمن بها ! !

* وكان من ثمرة هذه التبعية أن ثقافة عصرنا ـ فى جملتها ـ تدور على التهجم على تاريخنا السياسيى والفكرى ، والسخرية منه ، وازدراء علمائنا وأئمتنا ، وفى المقابل الحديث عن أمجاد الغرب وتقدمه وعظمته ! !

* ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب الذى يتناول هذه الظاهرة ـ التبعية الثقافية ـ ومعالجتها ؛ ببيان معنى التبعية ، والعوامل والوسائل التى أدت إلى هذه التبعية،ثم بيان مظاهرها وآثارها ، وكيف النجاة منها .

* وقد التزم المؤلف ـ حفظه الله ـ بالأسلوب العلمى الهادئ ، الموسوم بالموضوعية والدقة المنهجية أثناء معالجته هذه الظاهرة .

* **ودار الوفاء** يسرها أن تقدم هذا الكتاب إلى قرائها الكرام، والله الموفق إلى سواء السبيل .

الناشر

الوفاء للطباعة والنشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت: ٣٤٧٤٢٣ ص ب : ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية ـ مكتبة الوفاء

١٦ ش [illegible]لى ت : ٣٩٣١٤٣٤ / ٣٩١٢٢٠٩